رواد الاستثمار

٥

سيد جلال

"إبن البلد"



LMDC

مركز إعداد القادة لإدارة الأعمال - وزارة الاستثمار



مركز إعداد القادة لإدارة الأعمال

سلسلة رواد الاستثمار

سيد جلال

ابن البلد

مصطفى بيومى

تمهيد

يقـدم سيد جلال، الاقتصادى العصامى الكبـير والبرلمانى الشعبى الأصيل، أنموذ جاً بالغ الأهميـة لـرواد الاستثمار الذين عاشـوا وعملوا وأنتجوا قبل وبعد ثورة ٢٣ يوليـو، وقد استمر عطاؤه خلال المرحلتين المتعاقبتين، مخلصاً لما يؤمن به من الأفكار والمبادئ والقيم، ومجسداً لكل ما يحمله ابن البلد صعيدى الأصل من سمات وسجايا.

كان سيـد جـلال تاجراً ورجـل صناعة وفلاحاً يعشـق استصلاح الأراضى البـور، كما كان سياسياً عملياً يقدم الخدمات لأبناء حيه، ويجتهد فى تقديم مشروعات القوانين والقرارات التشريعية التى تتجاوز منطقة "باب الشعرية"، إلى عموم الوطن.

الفصـل الأول: "سيرة حيـاة"، يستعرض رحلة سيد جلال منذ أن غادر قريته فى أسيوط، إلى أن تربـع علـى ذروة النضج والنجاح، مـروراً بمحطات مهمة عمل فيها شيـالاً وأجيراً فى مخبز وفراشـاً فى شركـة أجنبية لتجارة الغلال فى بورسعيد. وخلال هـذه المراحل، علم سيد جلال نفسه بنفسه، وتثقف ذاتياً بإتقان اللغات الأجنبية قراءة وكتابة، معتمداً على ذكائه وإيمانه الراسخ بأهمية العلم فى بناء شخصية المستثمر الناجح.

يتوقـف الفصـل الثانـى: "دروس وعظات"، أمـام مجموعة من العلامـات التى تميز حياة المستثمر العصامى: التثقيف الذاتى، الإعلاء من شأن الكرامة والاعتزاز بالنفس، التسامح والابتعاد عن التعصب المرذول، تشجيع ودعم كل مجتهد بالمال والخبرة دون شح أو تقتير.

"المجتمع والناس" عنوان الفصل الثالث، وفيه رصد وتحليل وتقييم لبعض أفكار واجتهادات وممارسـات سيد جلال، انطلاقاً من القراءة التحليليـة لبعض مقالاته وكتاباته التى تنم عن توجهه الفكـرى ورؤيتـه الاجتماعيـة الواعية، وينطلق الرجل فـى منظومته هذه من تصـور أخلاقى مثالى، يتسم بالبساطة والعمق، وينعكس بتمامه فى ممارساته كنائب برلمانى نشيط.

هـذه الممارسـات هـى موضوع الفصـل الرابع: "البرلمانـى"، وقـد كان سيد جلال من شيوخ العمـل البرلمانـى المصرى قبل وبعد ثورة ٢٣ يوليو، واقترن اسمه بكثير من القوانين والتشريعات التى تكشـف عن حسه الاجتماعـى وتعاطفه مع بسطاء الناس، ولعل قانون إلغاء البغاء العلنى هو التشريع

الأكثر شهرة فى تاريخه البرلمانى. ومع أهمية هذا القانون وخطورته وضرورته، فإنه يعبر فى جانب منه عن منهج يتعامل مع الظواهر الاجتماعية من منظور مثالى لا يميل كثيراً إلى التوقف أمام الأبعاد المتشابكة المعقدة التى تشكل العملية الاجتماعية، وهو المنظور الذى دفع الرائد الكبير إلى الوقوف على حافة الرؤى المحافظة، كما يتجلى فى موقفه من المرأة وحقوقها السياسية والشخصية.

"عدو المرأة؟"، عنوان الفصل الخامس والأخير الذى يناقش موقف سيد جلال من المرأة، عبر التوقف المتأنى أمام موقفه المعارض لمشاركتها فى الحياة النيابية، وحملاته ضد الملابس والأزياء النسائية التى يرى فيها خروجاً عن الأخلاق والتقاليد. ولقد أصر سيد جلال على موقفه هذا حتى اليوم الأخير من حياته الحافلة بالعطاء، ولذلك فإن الفصل لا يتضمن دفاعاً أو تبريراً، لكنه يقدم شرحاً وتفسيراً.

فى "الخاتمة" رؤية مكثفة عن مجمل الخبرات التى يمكن اكتسابها من تحليل رحلة سيد جلال المتشعبة، والمأمول أن تكون، كما هو الحال فى الفصول السابقة لها، قد نجحت فى تقديم رؤية متوازنة، تتوقف أمام ما للرجل وما عليه، من منطلق الإيمان بأنه قيمة جليلة جديرة بالاهتمام والاحترام، تماماً كما أن بعض أفكاره واجتهاداته جديرة بالاختلاف.

مصطفى بيومى

الفصل الأول
سيرة حياة

-١-

المشهد الأول فى قرية "بنى عدى"، التابعة لمديرية أسيوط، وصاحبة التاريخ الحافل الذى شهد ثورتها الشهيرة ضد الحملة الفرنسية.

السنة الأولى فى القرن العشرين، وأسرة ريفية فقيرة تستقبل مولوداً يحمل اسم سيد جلال. ذكرياته عن أبويه فيما بعد قليلة غائمة، فقد رحلا عن الدنيا وهو دون الخامسة من عمره، واضطر اليتيم أن يعمل أجيراً فى الحقول قبل أن يصل إلى السابعة.

تضيق به الدنيا فيفكر فى السفر إلى القاهرة، العاصمة التى هاجر إليها الكثيرون من أبناء القرية فأثروا وعرفوا الحياة المستقرة، وتفتحت لهم أبواب العمل والرزق.

كان سيد جلال فى التاسعة عندما سافر إلى القاهرة فى مركب نيلى متواضع، ولأنه لا يملك قروشاً يدفعها أجراً لسفره، فقد عمل على ظهر المركب مع الملاحين.

قد تكون البداية شقية شاقة حافلة بالكثير من المصاعب والإرهاق، لكن الرجال الأشداء هم الذين تزيدهم محن الطفولة صلابة وقوة.

-٢-

كان استقبال القاهرة للطفل سيد جلال قاسياً متجهماً لا يمنح إلا الجوع والتعب والشعور بالغربة والضياع، لكن الطفل الوافد من الصعيد يتسلح منذ البدء بالإصرار والرجولة المبكرة، ويبدأ حياته العملية شيالاً يحمل أثقالاً تزيد عن وزنه، ثم يلتحق عاملاً فى مخبز بمنطقة العدوية فى بولاق. أجره اليومى لا يزيد عن خمسة عشر مليماً، وبعد شهر ونصف من العمل المرهق يقبض أجره الأول، فيكتشف مصدوماً أن صاحب المخبز لا يعطيه إلا تسعة وأربعين قرشاً ونصف القرش!، وإذ يحتج الطفل سيد جلال لأنه يستحق سبعة وستين قرشاً ونصف، يقول له رب العمل إنه قرر أن يخصم من أجره الزهيد ثمانية عشر قرشاً.. بلا سبب أو جريرة!.

كان منطقياً أن يتبخر حلم القاهرة، وسرعان ما تستقبل مدينة بورسعيد طفلاً لم يتجاوز العاشرة إلا بشهور قليلة، لتبدأ مرحلة جديدة فى حياة سيد جلال.

-٣-

شركة أجنبية لتجارة الغلال يملكها يونانى، وكان الوافد الصبى سيد واحداً من السعاة الذين يعملون فى الشركة، يتنقل بالأوراق بين الموظفين، ويقضى لهم حاجاتهم ويلبى مطالبهم، ويجوع طويلاً ويأكل قليلاً، لكنه يختلف جذرياً عن أمثاله من السعاة، فهو يملك موهبتين خارقتين للمألوف: الحلم والإرادة.

أنضجته التجارب المريرة قبل الأوان، وتمسك الفتى الصعيدى ذو العزيمة الفولاذية بالأمل فى الوصول إلى حياة أفضل. لم يتعلم فى كتاب أو مدرسة، لكنه ثابر حتى تعلم مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم كاملاً، ثم اقتحم عالم الحروف الأجنبية التى يسمعها تتردد على شفاه الأجانب المتعاملين مع الشركة من مختلف الجنسيات.

بعد سنوات قلائل، كان سيد جلال يتقن القراءة والكتابة والحديث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية واليونانية والإيطالية والأرمينية!.

-٤-

الشهادات التى تمنحها المدارس والجامعات ليست معياراً وحيداً للتقييم، فما أكثر المتعلمين الذين لا يعرفون شيئاً عن الحياة العملية، ولايملكون المعرفة الحقيقية، ويقنعون بالقشور التى لا تشبع.

سيد جلال من طراز مختلف، فهو أنموذج فذ فريد للتثقيف الذاتى، وحالة تستحق التأمل للتحول الإيجابى بالجهد الدءوب المنظم إلى العمل النافع والعلم المثمر.

بالكفاءة يرتقى الساعى البسيط إلى منصب وكيل الشركة، ثم هو لا يقنع بما وصل إليه، فيعمل مستقلاً فى الاستيراد والتصدير واستصلاح الأراضى وتشييد المصانع المنتجة. كان هذا التحول عبر جهد شاق لا شبهة انحراف أو فساد فيه، وأصبح سيد جلال واحداً من أغنى الأغنياء، لكن ثروته الحقيقية ليست نقوداً مودعة فى البنوك، وليست عقارات وأصولاً فى شركات، بل إن هذه الثروة فى جوهرها عقل مضئ، يتعانق مع الخيال والإرادة، فتكون النتيجة إنجازاً يشبه المعجزات.

معجـزة من صناعة البشر، ونجاح مستحق يتوج رحلة العمـل الشاق والكفاح الجاد، واسم يصلح لتجسيد أفضل قيمة فى الحياة الإنسانية، قيمة العمل الذى لا يتوقف لأنه يمتع صاحبه، ويسعد الآخرين، ويحقق تراكماً وطنياً جديراً بالتقدير والإعجاب.

-٥-

فى العام ١٩٣٩، رفض سيد جلال أن يشترى أرضاً زراعية خصبة، وآثر أن يستثمر أمواله فى استصلاح أرض بور قريبة من أشمون، وسرعان ما تحولت هذه الأراضى المستصلحة إلى مزرعة كبيرة منتجة للموز والبطيخ.

وكان الرجل يقترب من الستين، عندما اشترى شركة الصناعات المتحدة فى شبرا الخيمة، وهـى شركـة متخصصة فى صناعـة الجيلاتين والغراء والكرتـون. كانت الشركـة تعانى من انهيار شامل، ومحاصرة بالديون، وإنتاجها لا يكفى لسداد أجور العاملين فيها.

اشـترى سيد جـلال مشروعاً لا يغرى أحداً من المستثمريـن التقليديين، وعكف على دراسة أسبـاب الخسائـر الفادحة، فاكتشف أن إنتاج الجيلاتين والغراء ليس مجدياً، لأن السوق محتكر من كبار التجار، ولذلك بادر بتحويل النشاط إلى صناعة الكرتون وحده، وطور أساليب الإنتاج والتوزيع، بـل إنه قام بجولة فى الولايات المتحدة الأمريكية وبعض دول أوربا الغربية، ليتعلم ويشاهد أحدث ما وصل إليه العلم الحديث، وبعد عودته استمرت عملية التطوير المدروس، وتحولت الخسائر إلى أرباح، والفشـل إلى نجـاح. سدد كل الديون، وصـرف للمساهمين أرباحاً لم يحصلـوا عليها من قبل، ومنح العمال مكافآت تليق بجهدهم.

عندمـا احترقـت الشركة الناجحـة، همس له بعض الأصدقـاء المقربين كأنهـم يواسونه ويشجعونه: لن تجد الحكومة ما تؤممه!، وكان رد فعل سيد جلال مختلفاً عن قصيرى النظر هؤلاء، فقـد قـرر أن يبدأ العمل مـن جديد، وأن يتجاوز سريعـاً آثار الحريق المدمـر، وألا يفكر فى مخاطر التأميم قدر انشغاله بقيمة العمل.

-٦-

تقـدم حياة سيد جلال دروساً بليغة عن الإنسـان المكافح الذى يعتز ببداياته ولا يتنكر لها، فهـو يراها صفحـات تستدعى الفخر والمباهـاة، ولا يفعل ما يمارسه المدعـون إذ يصنعون لأنفسهم تاريخاً مزيفاً، وكأنهم يتبرأون من ماضيهم الفقير البسيط.

عندمـا رشح سيد جـلال نفسه للمـرة الأولى فى الانتخابـات البرلمانية، وحقـق فوزاً يليق بمكانتـه وإنجازاتـه، تجول ليلتقـى بناخبيه من أبناء بـاب الشعرية، الحى الشعبـى العريق، ويتلقى تهانيهم. تقدم واحد من أنصاره ليقول له:

- يا سيد بك.. يريد فلان أن يهنئك بالنجاح.

عندما استمع النائب الناجح إلى الاسم، كانت كلماته تعبيراً عن التواضع والثقة بالنفس:

- كيف لا أعرفه؟ لقد اشتغلت سائقاً عند والده، وكان من خير الناس.

العمـل فى الحقول شرف، والعتالة مجد، والمخبز مدرسـة، والسعاة شرفاء يقومون بخدمة جليلـة. القيمـة الحقيقية للإنسان تتمثل فـى إتقان العمل الذى يقوم به، وفـى الوعى بجوهر الحياة الإنسانية.

لم يكـن سيـد جلال ثرياً وجيهاً من أصحاب الملايين، ذلـك أن القيمة الأسمى والأعظم فى حياته أنه كان إنساناً نبيلاً من أصحاب الإرادة.

استقـل بعمله الاقتصادى منـذ سنة ١٩١٩، وأصبح بالكفاءة والجهـد من أشهر المصدرين والمستوردين، وتم اختياره خبيراً فى المحاكم المختلطة، وأنتخب عدة مرات عضواً فى الغرفة التجارية، وكان نائباً برلمانياً عن دائرة باب الشعرية، حيث تفانى فى خدمة ناخبيه.

فى مواقف الرجل عظات ودروس، حافلة بالقيم والمبادئ الجديرة بالاحتذاء والتقدير.

الفصل الثانى
دروس وعظات

-١-

"التثقيف الذاتي" هو الدرس الأول والأروع في حياة سيد جلال، فالرجل ليس من حملة الشهادات الجامعية، ولم يتلق تعليماً نظامياً في يوم من الأيام، لكن الاستسلام لم يكن وارداً في قاموس حياته المسكونة بالقوة والتصميم، ولذلك نجح في أن يحصّل من العلم ما يتفوق به، كماً وكيفاً، على الكثيرين ممن أتاحت لهم ظروف النشأة، اجتماعياً واقتصادياً، أن يتعلموا.

ما التعليم؟، وما الثقافة؟!. إذا كان الأمر ورقياً شكلياً ينصرف إلى ما تمنحه المدارس والجامعات من شهادات موثقة، فلا معنى للمناقشة ولا جدوى منها، أما إذا كان المستهدف هو الجوهر العميق المتمثل في المحصلة النهائية والمردود، فإن أنموذج سيد جلال يقدم برهاناً عملياً على قدرة الإنسان الجاد في تجاوز الظروف المعاكسة.

كان يريد أن يتعلم، وأن يملأ رأسه بالمعرفة التي تعينه على اقتحام الحياة والتواصل معها. لم يصل إلى ذلك الهدف النبيل عبر الالتحاق بمدرسة ليلية، تمهيداً للدراسة النظامية والشهادة الرسمية، بل إنه اتخذ القرار الصعب بمراودة المعرفة اعتماداً على نفسه، وكانت الخطوة الأولى هي إتقان اللغات الأجنبية التي يسمعها أثناء عمله بالشركة. خلال سنوات معدودات، أتقن سيد جلال عدداً من اللغات تتجاوز قدرات الجامعيين وحاملي الدرجات العلمية الراقية، وبواسطة هذه اللغات انفتحت أمامه آفاق الثقافة الموسوعية بلا حدود.

كان يقرأ بهذه اللغات مثلما يتكلم، ولم تؤثر هذه الثقافة الغربية على تمسكه برؤية ثقافية سياسية اجتماعية نابعة من التقاليد الوطنية التي نشأ عليها، وظل مخلصاً لها إلى اليوم الأخير في حياته الحافلة بالإنجازات.

قد لا تروق آراؤه وأفكاره واجتهاداته للكثيرين، ممن ينتسبون إلى مدارس فكرية وسياسية مغايرة، لكن أحداً من معارضيه والمختلفين معه لا يملك إلا أن يحترم قيمة الثقافة الذاتية التي اكتسبها سيد جلال بالجهد والعرق والإصرار.

نتعلم من حياة الرائد الاقتصادي الكبير أن الثقافة لا تقترن بالتعليم، فهي قيمة يمكن للمرء أن يصل إليها بالاعتماد على نفسه. المهم أن تكون جاداً مثابراً، وبعدها يمكن أن تُذلل الصعاب جميعاً.

-٢-

الإعلاء من شأن الكرامة هو الدرس الثانى الذى يمكن استنباطه من حياة سيد جلال. هل مـن تعارض بين الفقر والكرامة؟!. ألابد للإنسان الفقير أن يكون خانعاً ذليلاً تابعاً؟!. قد تكون هذه هى الصورة النمطية السلبية السائدة، لكن سيرة سيد جلال تقود إلى نقيض ذلك.

كان الصعيـدى الفقير معتزاً بكرامته وهو لا يملـك شيئاً، وكان متصالحاً مع نفسه لإيمانه العميـق أن العمـل شرف لا يمكن أن يشين صاحبه، وأن الوظائف المتواضعة محدودة الدخل لا علاقة لها بالنفوس الرفيعة.

لم يُعـرف عنه أنه تهاون يوماً فى اعتداده بنفسه، ولم يكن أيضاً مغروراً متعالياً متغطرساً، فهو يريد من الآخرين أن يعتزوا بكرامتهم ويتمسكوا بها دون تفريط. وعلى كثرة الحكايات والوقائع التـى تبرهـن على هذه القيمـة الإيجابية، فإن حكاية واحـدة منها تكفى للتدليل علـى طبيعة الرجل وفلسفته العملية.

يـروى واحـد من الأصدقاء المقربين لسيد جلال أنه زاره مـرة فى مكتبه، وجاء إليه موظف يعمل عنده ليعرض عليه أمراً من أمور العمل. كان الموظف الشاب خجولاً ممعناً فى الضعف، ويحاول أن يسترضى رئيسه بكل ما يقدر عليه من ألوان الخضوع والخنوع. فجأة يثور سيد جلال، ويصرخ فى عصبية منتهراً الموظف الصغير، ويقول له فى حدة: " ما هذا؟ إنك تبدو وكأنك عبد رقيق أمام سيد متجـبر.. ألا فاعلم أنـه لا يعجبنى فيك أن تخاطبنى بهذه اللهجة الضعيفة الواهية. ارفع من قامتك، واجعل رأسك إلى السماء، وحادثنى كما يحادث رجل رجلاً، واعلم أننى لست خالقك" .

يسكـت سيـد جلال لفترة قصـيرة، ثم يواصل حديثـه مع الموظف: "عنـدمـا كنت فى مثل عمرك، كان مركزى فى الحياة أقل من مركزك، ولكننى كنت إذا خاطبت مدير الشركة العام وقفت أمامه كما لو كنت مديراً عاماً مثله، ولم أكن أسمح لنفسى أن أظهر الخضوع إلا لله" .

ويواصـل الصديق حكايته، فيشير إلى إسهاب سيـد جلال فى الحديث عن ماضيه الذى لا يخجل منه أو يسعى إلى إخفائه، وصولاً إلى استيعاب الشاب للرسالة، وإدراكه أن الاقتصادى الكبير يلقنه درساً: الاعتزاز بالكرامة هو المدخل الضرورى للتواصل الإيجابى مع الحياة.

-٣-

درس ثالث مهم تقدمه سيرة سيد جلال: تسامح بلا ضفاف. لقد حورب الرجل فى ثروته وتجارتـه، وتعرض لمظالم لا مبرر لها أو منطـق يحكمها، لكنه ظل دائماً مؤمنـاً بالتسامح دون حقد أو ضغينـة، فهو لا يبحث عن ثـأر شخصى فى ظل تراكمات يفرزها واقع موضوعى، كما أنه لا يعرف الشماتة فى هزائم نظام لا يتوافق معه، فالهم الوطنى العام هو ما يشغله.

كان سيـد جلال يعانى من أزمـة مرضية ويتلقى العلاج الطبى فـى المستشفى الإسرائيلى، وهو المستشفى الذى تتصدره عبارة شهيرة للعالم باستير: "نحن لا نسألك ما دينك.. ولكننا نسألك ما علتك".

واحـد مـن زائرى سيد جلال كان موظفاً كبيراً ذا شأن، لكـن هذه المكانة الوظيفية لا تعنى بالضـرورة أن يكـون مثقفاً، ولذلك تساءل فـى نبرة استنكارية تهكمية: من يكـون باستير هذا الذى تتصدر كلمته مدخل المستشفى؟!. أظنه فيلسوفاً معاصراً لسقراط وأفلاطون!.
استمع سيد جلال إلى تعليق زائره، ولم يجد حرجاً فى أن يكشف للموظف الكبير ما خفى عنه من معلومات عن شخصية العالم الكبير، وأفاض فى حديث مطول عن باستير وأفضاله.

لم يكـن حديثه عن باستير استعراضاً لثقافته، لكنه يحمل دفاعاً ضمنياً عن العبارة الدالة التـى يؤمن بها، حيـث الفصل واجب وحتمى بين الانتماء الدينى والمشـتركات الإنسانية التى تتجاوز العقائد والأديان.

العـلاج فى المستشفى الإسرائيلى، والدفاع الموضوعـى عن عالم مسيحى، والقائم بالدرس العملـى مـن كان يُعرف أحياناً بأنه "تاجر غلال"، لكنه بثقافتـه يحاضر موظفاً كبيراً يحمل الكثير من الشهادات!.

كان سيـد جـلال مسلمـاً متديناً متسامحـاً، ويتجسد تسامحـه على المستويـين الشخصى والموضوعـى، فهـو برئ من داء التعصـب، ومسلح بفضيلة التقييم النزيه الـذى ينجو به من أمراض النرجسية وعلل الادعاء الكاذب.

-٤-

سيـد جلال، المثقف المعتـز بكرامته، المتسامح، يقدم درساً رابعـاً جليلاً يتمثل فى تشجيعه للجاديـن المخلصـين فى أعمالهم. ثمة إجماع من عارفيه والمقربـين منه على مبادرته بتقديم الدعم لكل من يستحقه، فهو معطاء بلا حدود، وحريص على التواصل مع الأجيال التالية.

فى العام ١٩٥٧، تبنت جريدة "أخبار اليوم" مشروعاً مهماً لتشجيع الأفكار الإيجابية التى يقدمها الشباب الطموح، وخصصت مبلغاً لا يستهان به، بالنظر إلى أسعار وأجور المرحلة التاريخية: ألـف جنيـه، لكل صاحب فكـرة قابلة للتنفيذ، وسرعان مـا شارك كبار المستثمريـن ورجال الأعمال بمبالغ مماثلة، وكان سيد جلال واحداً من هؤلاء.

كتب الاقتصادى العصامى الكبير رسالة للأستاذ على أمين، يقول فيها:

"عزيزى على أمين..

أعجبتنـى فكرة مشروع الألف جنيه. شعرت وأنا أقرأهـا أن أبواب الرزق ستفتح أمام عدد من الشبان المكافحين. شعرت أنك تفتح الباب لأفكار كادت تختنق فى رؤوس أصحابها، وتحيى آمالاً يجب أن تعيش.

وشعرت بعد قراءة فكرتك أنه يجب أن أشارك فى هذا المشروع. يجب أن أقف بجانب شاب من أصحاب الأفكار، ولكنى لم أكن أملك ألف جنيه نقداً. فذهبت إلى البنك واقترضت ألف جنيه. إننـى أضـع هذه الألف تحت تصرف لجنـة مشروع الألف جنيه لتعطيها لأحـد أصحاب الأفكار التى تختارهـا. وإننى مستعد إذا رأى صاحـب الفكرة أن يستفيد بتجربتى البسيطـة وخبرتى القليلة، أن أشاركه فى تنفيذ مشروعه.

ويهمنـى أن تربـح الفكرة عدداً من الناسـن. وأفضل أن يكون هؤلاء الناسـ من أهل الريف المصرى، لأننى أؤمن أن المدن ازدحمت فوق طاقتها، ومن الواجب أن نتجه بأفكارنا إلى الريف".

عنـد التأمل فى الخطاب القصير لسيد جلال، نستطيـع التوقف أمام عدة مرتكزات بالغة الأهمية.

المرتكز الأول هو حرصه على أن تُفتح أبواب الرزق والعمل أمام الشباب المكافح الجاد، فهو لا يـرى فى هؤلاء الناجحـين منافسين محتملين، بل إنهم شركاء فى صناعـة مناخ الازدهار الوطنى العام.

المرتكـز الثانى يتمثل فى إيمانه بتكامليـة الأفكار والأعمال، فكل عمل ناجح مؤثر مثمر يبدأ بفكرة نظرية، فإذا وجدت الرعاية والتشجيع لابد أنها ستؤتى ثمارها.

يتجلـى المرتكز الثالث فى ذلـك المزيج النادر بين البساطة والتواضع، فرجل فى مثل مكانته لا يستشعـر الحـرج فى الاعـتراف بأنه لا يملك المبلغ البسيط تحت تصرفه، كمـا أنه لا يتردد فى أن يعرض خبرته العملية التى لا تُقدر بمال، لمساعدة من ينفذ المشروع!.

المرتكـز الرابع والأخير يمكـن أن نلتمسه فى الإشارة الواعية إلى ضـرورة التنمية الريفية، فقـد ازدحمت المدن بالناس والمشروعـات، واختل التوازن بما يستدعى تدخـلاً عاجلاً لتغيير المسار وتحقيق الإنصاف.

يقول هذا كله فى بساطة لا ادعاء فيها ولا تعالم أو غرور، ويسهم بأمواله وأفكاره فى النهوض بمن لا يعرفهم، فلا هدف له من هذا التشجيع إلا دعم النهضة التى تتجاوز شخصه.

ـ ٥ ـ

مـا أكـثر الذين كتبوا عـن سيد جلال بعـد رحيله فى ينايـر ١٩٨٧، فهو شيـخ البرلمانيين، والاقتصـادى العصامـى الـذى صعد إلى القمـة بجهده وعرقـه، والأب الروحى لحى بـاب الشعرية الشعبى العريق.

رجل وطنى شجاع جرئ، لا يحمل حقداً أو ضغينة، ويتفانى فى خدمة البسطاء ويعتبر نفسه واحـداً منهم. لم يكن مستغرباً أن تتوالى الكتابات فـى الإشادة به، لكن مقالاً قصيراً نشرته جريدة "الجمهورية"، السابع من يناير سنة ١٩٨٧، يقدم عدداً من المفاتيح المهمة للإحاطة بشخصية سيد جلال.

يحمل المقال عنوان "سيد جلال.. الإنسان.. ابن البلد.. المدرسة"، أما كاتب المقال فهو اقتصادى كبير لم يعتد الكتابة أو يحترفها: المهندس عثمان أحمد عثمان.

يقول عثمان فى مطلع مقاله: "قد يجهل شباب هذه الأيام من هو سيد جلال.. ولكن جيلنا يعرف تماماً قدر هذا الرجل الذى أعطى لمصر فوق طاقة البشر.. ولم يبخل عليها فى أى يوم بالعطاء.. أعطى للأرض وأعطى للإنسان وأعطى للقرية التى ولدته.. وأعطى للحى الذى عاش فيه. ولم يتوقف، لأنه كان يشعر بفضل هذه الأرض عليه".

رحلة ممتدة من العطاء، وإخلاص وطنى عملى لا يقع فى شرك الشعارات غير ذات الجدوى. منح لغيره كل ما حُرم منه، وسعادته الحقيقية فى التواصل مع مجتمعه، وبتعبير المهندس عثمان أحمد عثمان: "لم يكن سيد جلال عظيماً بماله وبما حققه، ولكن عظمته فى أنه كان يعطى دون أن يتوقف عن العطاء".

عظمة العطاء هى المفتاح الأكثر أهمية لفهم شخصية سيد جلال، والعمل السياسى عنده ليس إلا البحث الدءوب عما يسعد الناس ويلبى احتياجاتهم اليومية، فهو ابن بلد أصيل شهم، يعيش مع البسطاء والفقراء، ويعرف همومهم ومشاكلهم، ويقدم حلولاً وإنجازات.

المجتمع عنده هو الناس الذين يخالطهم، والسياسة أداة للارتقاء بحياة المواطن العادى، والثروة التى يملكها وسيلة للإصلاح والتنمية.

الفصل الثالث
المجتمع والناس

-١-

نشأ سيد جلال فى بيئة فقيرة، وكابد مرارة الفقر والحرمان طويلاً قبل أن يصعد إلى قمة الثراء والنجاح. لم يكن فقره القديم يوماً عقدة فى مسيرة حياته، فقد كان القانون الذى يحكمه هو العمل لكى ينجو الآخرون من المصاعب والهموم التى تعرض لها. بذل الرجل كل ما يستطيع من الجهد لتنمية المجتمع الذى يعيش فيه، ولم تكن أعماله الخيرية التنموية نابعة من فراغ، فهو يملك رؤية متكاملة، ويعى جيداً خطورة الدور الذى يقع على كاهل رجال الأعمال.

عاصر سيد جلال مرحلتى ما قبل ثورة يوليو وما بعدها، وعمل فى السياسة عبر خوضه للانتخابات البرلمانية فى دائرة "باب الشعرية"، وكتب فى الصحف والمجلات، وأجريت معه الأحاديث والحوارات. من ذلك كله تتشكل فلسفة الرجل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهى فلسفة قوامها خدمة المجتمع والناس، والتواصل مع إيقاع الحياة اليومية، والابتعاد عن ترديد الشعارات التى لا يصحبها إنجاز عملى.

-٢-

"كيف تصبح مليونيراً؟!"، عنوان مقال نشره أحمد عبود باشا فى مجلة "الأثنين"، العدد ٤٧٩، السادس عشر من أغسطس ١٩٤٣. وفى العدد نفسه، نشر سيد جلال مقالاً مختلفاً: "كيف أنفق مليون جنيه؟!".

مبلغ المليون جنيه، بمقاييس منتصف الأربعينيات من القرن العشرين، ثروة طائلة تمثل حلماً عسير المنال عند كبار المستثمرين، ولم يكن سيد جلال نفسه يملك مثل هذا المبلغ، ولذلك يفتتح مقاله القصير العميق بقوله: "قبل كل شئ أحب أن أقول إنى لست مليونيراً .. ولا نصف مليونير .. ولا ربع مليونير! ولا أتمنى أن أكون مليونيراً، لأن الغنى فى رأيى هو الخلق الكريم وحب الناس، أما الفلوس فهى الثراء! فالرجل الكريم هو الغنى، والرجل الذى يملك مئات الألوف هو الثرى".

المال ليس قيمة فى ذاته، والنجاح الحقيقى المشبع متاح فى الأخلاق واكتساب المحبة. التمييز ضرورى بين "الغنى" و"الثرى"، ولن يكتمل معنى الغنى بمعزل عن انعكاسات الثروة على الآخرين مروراً بالذات.

مـاذا لـو أن سيد جـلال يملك المليـون؟!. الإجابة حاضـرة فى ذهنه، وليسـ فيها شئ من مفـردات البحث عن الترف والمتعـة الشخصية الشكلية: "لو كنت مليونيراً .. فأول ما أفعله أن أنشئ مصنعـاً لصناعـة جديدة، وبهـذا أعد عملاً لآلاف العمـال الذين سيتبطلون بسبـب انتهاء الحرب، وأقيـم بجـوار المصنع ملجأ يسع ألفاً مـن أبناء السبيـل وأغذيهم وأعلمهم وأدربهـم على العمل فى المصنع. وسأنفق كل المليون جنيه فى هذا المشروع".

لكبار الأغنيـاء وظيفة اجتماعية وواجبات وطنية ينبغى الالتفات إليها والاهتمام بها، وقبل عامـين كاملين من نهاية الحرب العالمية الثانية، ينتبـه ابن البلد الشعبى المثقف إلى ما سوف يترتب علـى نهاية الحرب من نتائج اقتصادية وخيمة. الصناعة هـى المستقبل، وتوفير فرص العمل مطلب ضـرورى لتحقيق الاستقرار والازدهار. أمـا جيوش العاطلين، فلا يجدى معها أن تكون محسناً يجود بالصدقات، لكن الأهم أن توظف الطاقات المهدرة.

سينفـق الرجـل كل ماله المتخيـل فى المشروع الصناعـى، فماذا عن الأربـاح؟!. يقول سيد جلال فى مقاله إنه سيخصص الأرباح على النحو التالى:

أخصص ٢٠٪ من الأرباح لاحتياطى المصنع.

١. أخصص ٢٠٪ لنفقات الملجأ.
٢. أخصص ٢٠٪ لتغذية أطفال التعليم الإلزامى.
٣. أخصص ٢٠٪ للإنفاق على إنشاء جريدة تنطق بلسان الحق، ولا يسيطر عليها إلا الحق، وتكون لسان حال الفقراء .. وتدافع عن ذلك "الرجل المنسى" وهو العامل والفلاح.
٤. أخصص ١٠٪ من الإيرادات لإدخال مادة جديدة فى كليات الجامعة، وهى مادة "الأخلاق" .. يتعلمها طلبة كلية الطب والعلوم والحقوق والآداب والهندسة والزراعة، فنحن فى حاجة إلى أن ندرس هذه المادة إلى جانب ما ندرس من علوم.
٥. أخصص ٥٪ من الإيراد لمساعدة الفتيات الفقيرات اللاتى يرغبن فى الزواج ولا يتقدم إليهن أحد لأنهن فقيرات.
٦. يبقى بعد ذلك ٥٪ من الإيراد ستكون لى ولأولادى.

تفكير اقتصادى علمى رشيد، وحس اجتماعى إنسانى مرهف، ومراهنة على المستقبل الذى ينبغى أن يُهيأ للأطفال منذ البدء، وإيمان بضرورة الإعلام الملتزم البناء المدافع عن الحقوق الشعبية، ومزيج مثالى يطمع إلى الجمع بين العلم والأخلاق فى منظومة واحدة، وانتباه جدير بالاحترام إلى أهمية المؤسسة الأسرية. أما عن الحياة الشخصية فتأتى فى نهاية المعالجة.

يختتم الرجل مقاله بكلمات تكشف عن حسه المرح وبساطته الآسرة: "وأتعهد إذا تم هذا ألا آكل سوى (طقة) واحدة فى اليوم"!.

"طقة واحدة" تبدو مشبعة، ذلك أن الدائرة المحيطة بها مسكونة بالسعادة والانسجام.

-٣-

بعد عامين من المقال السابق، نشرت جريدة "أخبار اليوم"، فى عددها العاشر الصادر فى الثالث عشر من يناير سنة ١٩٤٥، مقالاً مهماً لسيد جلال: "لو كنت وزيراً للشئون!".

إذا كان المقال الأول، المنشور فى مجلة "الأثنين"، ينطلق من فرضية امتلاك كاتبه لمليون من الجنيهات، فإن سيد جلال فى المقال الثانى يتقمص شخصية وزير الشئون الاجتماعية، ويقدم روشتة علاجية مصدرها الإيمان الراسخ بأن هذه الوزارة المستحدثة هى الأهم: "لو أدت رسالتها دون أن تخرج عن برنامجها الاجتماعى، لنهض الشعب المصرى بمختلف طبقاته نهضة سريعة".

البند الأول فى روشتة العلاج يتوقف أمام الثقافة والفن، ولأن الإذاعة المصرية وقتها كانت الوسيلة الإعلامية الأعظم تأثيراً فى تشكيل السلوك الشعبى، ولأنها كانت تابعة من الناحية الإدارية للوزارة التى سيتقلدها رجل الأعمال الكبير، فإنه يقول: "أحرم بتاتاً الأغانى المبتذلة التى تقتل الروح الوطنية، وتوجه إلى العشق الرخيص، لتحل محلها الأغانى التى تنمى الروح الوطنية، وحب الكفاح والعمل الصالح، ولتقتصر أحاديث الإذاعة على التهذيب والتثقيف الدينى والعلمى وفنون الاقتصاد".

تصور أخلاقى مثالى خلافى، والنية الحسنة لا تحول دون التأكيد على "نسبية" المفاهيم التى يدعو إليها سيد جلال. من الذى يحدد معنى الابتذال؟ وكيف تُوصف أغنية بعينها أنها تسهم فى قتل الروح الوطنية وتدعو إلى العشق الرخيص؟ وبأى أسلوب يتحول الفن إلى أداة تدعو إلى حب

الكفاح و" العمل الصالح "؟!. مثل هذا التصور قد يقود إلى نفى جوهر الفن، وبخاصة إذا قام بتنفيذ السياسة الأخلاقية من يعادون الإبداع ويتسمون بالتعنت والجمود !.

البند الثانى فى البرنامج الإصلاحى يقترن بالفلاح المصرى: " صاحب الفضل الأول علينا، فهو يتعب ويشقى فى سبيلنا، دون أن نرد له جميله، فمن حقه علينا أن نهتم بغذائه ومسكنه، وبالماء النقى لشربه واستحمامه، ونهيئ له كل ما يلزم لرفع مستوى معيشته " .

دعوة صريحة واضحة إلى الاهتمام بالفلاح، المحروم من الخدمات الجوهرية. وعلى الرغم من التعاطف ومشاعر المودة، فإن الاقتصادى الكبير لا يحدد خطوطاً واضحة للارتقاء بالحياة التعيسة. إنه يقدم تشخيصاً للعلة وما يترتب عليها من آثار سلبية، لكنه لا يطرح بديلاً عملياً فى برنامجه لتنفيذ الطموح الصعب!.

ثم ينتقل سيد جلال إلى العمال: " فهم عماد النجاح فى كل عمل، وبفضل سواعدهم يجمع أصحاب الأعمال الألوف، ويبقى هؤلاء فقراء يتقاضون قروشاً لا تتناسب مع ما يؤدون من أعمال، فلا يجدون الغذاء الصحى أو الكساء لهم ولأولادهم، ومن حقهم أن يعيشوا ويأكلوا .. فيجب إلزام أصحاب الأعمال بالعناية بعمالهم ورفع أجورهم وتأمين شيخوختهم " .

لا تختلف معالجة سيد جلال للمشكلة العمالية، من حيث عمومية منهج التناول، عن الأسلوب الذى يتبعه عن الحديث عند الفلاح. لا يخفى التعاطف، لكن المطالب فضفاضة، وثمة غياب كامل للتصور المتكامل عن الإجراءات الكفيلة برفع مستوى المعيشة وتوفير الغذاء والكساء. كيف يكون " إلزام " أصحاب الأعمال؟، وهل يتحقق ذلك الإلزام من منظور أخلاقى أم عبر قانون يحقق التوازن والانسجام ما بين الطرفين؟!.

ثقافة ملتزمة، واهتمام عاطفى بالفلاح والعامل، فهل يمكن أن يتحقق شئ من ذلك فى ظل الانتشار المزعج للأمية؟!. معالجة سيد جلال لهذه القضية تتسم بالكثير من الوعى والنضج: " قانون مكافحة الأمية بحالته الراهنة لا يكافح الأمية ولكنه يعقدها، فيجب أن يُجبر أصحاب الأعمال والآباء وكل من له ولاية على غيره على تعليم عمالهم وأولادهم، ومن يتولون أمرهم، إلى أن يجيدوا القراءة والكتابة وحفظ القرآن " .

الأمية داء خطير يهدد كل جهود التنمية، ويحول دون اكتساب العامل والفلاح للمهارة التى تزيد من طاقته الإنتاجية. إجادة القراءة والكتابة مدخل لابد منه، ثم تتلوه خطوات يتم فيها الانتقال إلى مرحلة جديدة هى اكتساب الثقافة المناسبة. صحيح أن القانون القائم فى الأربعينيات لم يكن كافياً، لكن البديل لا يمكن أن يكون "إجبار" أصحاب الأعمال والآباء على محو الأمية، ذلك أن الاختيار الأفضل هو إيجاد قانون فعال قابل للتنفيذ والنجاح.

ثم يصل سيد جلال إلى محطة جديدة يدعو فيها إلى تحقيق العدالة الاجتماعية عبر قانون ضرائبى فعال متوازن: "يجب فرض ضريبة على كل قادر تخصص لمساعدة الفقراء بدلاً من جمع التبرعات التى تجرح كرامة المحتاجين، وتشعرهم بالذلة والمسكنة".

تستقيم المعادلة هنا، فالمسألة تحتاج إلى قانون لا متسع فيه للاعتماد على المبادرات الفردية المردودة إلى عواطف الإشفاق. التبرعات والهبات ذات طابع فردى لا يمكن التحكم فيه، أما الانضباط الضريبى فيحقق الهدف دون إساءة، ويعين المحتاج دون إذلال.

النقطة الأخيرة فى البرنامج الإصلاحى تتوقف أمام الرياضة، التى يرى سيد جلال أنها ينبغى أن تكون إجبارية فى كل مدرسة مع ضرورة "نشر الروح الرياضية فى كل حى، لننشئ جيلاً صحيحاً قوياً، يعتمد على نفسه ويخدم وطنه فى الجيش".

لم يتقلد سيد جلال منصب وزير الشئون الاجتماعية، لكنه يطرح اجتهاداً يجمع بين المقترحات العلمية العملية، وبين التصورات الاخلاقية المثالية الفضفاضة. آراؤه فى مجملها تعكس طبيعته البسيطة الملتزمة دينياً وأخلاقياً، لكنها لا تتسم بالتماسك الفكرى القابل للتنفيذ، وهكذا الأمر فى السياسة.

- ٤ -

لا يطرح سيد جلال أفكاراً سياسية واقتصادية واجتماعية معقدة، فالبساطة هى الغالبة على اجتهاداته وأفكاره ورؤاه. وفى هذا الإطار، يمكن التواصل مع فكره السياسى، فالسياسة عنده ليست هدفاً فى ذاته، بل إنها وسيلة لإسعاد الناس وتلبية مطالبهم.

لا ينشغل الاقتصادى العصامى المكافح بالشكل السياسى وطبيعة النظام القائم، فبعد شهور من ثورة ٢٣ يوليو، نشرت مجلة "الجيل الجديد"، مارس ١٩٥٣، خطاباً مفتوحاً كتبه سيد جلال إلى الرئيس محمد نجيب.

مجاملة زعيم الحركة العسكرية لا تتجاوز كلمات قلائل فى مطلع الخطاب: "لا شك أن مصر لم تلق فى تاريخها الحديث رجلاً مخلصاً متفانياً فى الولاء لها مثلك"، وسرعان ما ينتقل الخطاب إلى أفق مختلف، يبدأ بالتأكيد على احتياج مصر إلى برلمان من نوع جديد، لا تُهدد فيه حقوق الشعب تحت أقدام النواب. الكلمات صادرة عن نائب برلمانى ذى تجربة، وليس من عداء للفكرة البرلمانية فى ذاتها، لكنه الحرص على تمثيل الشعب وليس الدفاع عن المصالح الشخصية وتحقيق المكاسب الفردية.

الفكرة الثانية فى الخطاب هى الدعوة إلى التصنيع وتقوية الجيش، فلا أمل فى التنمية الاقتصادية إلا بالاعتماد على الصناعة، ولا استقرار يحقق التوازن ومناخ العمل الإنتاجى إلا بوجود جيش قوى.

الفكرة الثالثة والأكثر أهمية هى "التحريض" على العمل بلا كلل أو تكاسل، فلا جدوى من "تدليل" الشعب بالشعارات البراقة التى تقود موضوعياً إلى السلبية والتواكل. يقول سيد جلال إنه لابد أن نعمل لكى نأكل، ولابد من استثمار النيل وتقديسه بشكل عملى: "وآه من النيل .. ذلك النهر الذى دلل هذا الشعب حتى أفسده التدليل.. فلو أننا كنا فى صحراء كاملة لعملنا ليلاً ونهاراً لنعيش كما يعيش الآخرون.. فلننشئ مكاتب لتقييد أسماء العاطلين تمهيداً لإلحاقهم بأى عمل .. وكل عمل الآن شريف .. ولو كان جمع الأوراق الضالة من الشوارع".

النيل مصدر للخير والعطاء، لكنه – فى الوقت نفسه – عامل مشجع للكسل والاعتماد على ما يفيض به من خيرات. العمل قيمة مقدسة، ولابد من تربية الإدارة الشعبية لتقبل فكرة العمل الشريف من ناحية، والتكاتف الجماعى لزيادة الإنتاج من ناحية أخرى. توظيف العاطلين مطلب سياسى واجتماعى، وليس هدفاً اقتصادياً فحسب.

ومن الأفكار الجديرة بالاهتمام، فى خطاب سيد جلال إلى اللواء محمد نجيب، دعوته إلى اللامركزية فى التعليم الجامعى "إياك أن تكثر من المعاهد الكبرى فى القاهرة .. بل أرجو أن

تنقلهـا من القاهرة إلى الأريـاف، فكل معهد سيصحب معه إلى الأقاليم، المدنية والحضارة والتقدم والرقى" .

يؤكد سيد جلال فى ختام رسالته أن الأوضاع الاقتصادية والتجارية فى مصر ليست سيئة أو متدهـورة، وأن الآثار السلبيـة المترتبة على الحرب العالمية الثانية آخـذة فى التراجع والانكماش. التفـاؤل مطلـوب شريطة أن يقوم على العمل والمزيد من العمـل، والإصلاح ممكن إذا تعاون الجميع دون التورط فى خصومات قصيرة النظر.

البرنامـج الذى يقدمه سيد جلال جديـر بالاهتمام، وقوامه حياة نيابيـة سليمة مستقرة، تصنيع متطور، جيش قوى، عمل واستثمار، لا مركزية فى التعليم.

كل أنهار الكلمات التى صرح بها سيد جلال وكتبها، تقود إلى البحر الشعبى الذى غاص فى أعماقه، وكان دوره البرلمانى، قبل الثورة وبعدها، تعبيراً عن انتمائه الوطنى الشعبى.

الفصل الرابع

البرلمانى

-١-

عند رحيل سيد جلال، فى يناير سنة ١٩٨٧، كتبت جريدة "الأخبار" ترثى "الأسطورة والقدوة"، مركزة على التاريخ البرلمانى الحافل للنائب الجليل، الذى كان نجماً ساطعاً فى الحياة النيابية عبر ما يزيد عن ثلث قرن، قبل ثورة يوليو وبعدها: "مات شيخ البرلمانيين.. الرجل العصامى.. الأب الروحى لحى باب الشعرية. مات عم سيد جلال كما كنا نطلق عليه. مات عن عمر يناهز ٨٦ عاماً، قضى أكثر من نصفه مناضلاً من أجل الشعب، متحدثاً لبقاً على بساطة حديثه بلكنته الصعيدية التى كانت تدخل القلوب.

عاش حياته البرلمانية جريئاً شجاعاً ينتزع الكلمة من المنصة بكل قوة، ويغير ويعدل فى كافة التشريعات لتتواءم مع أمانى وأحلام الطبقة العاملة. كان له الفضل فى إصدار الكثير من القوانين، وهو صاحب قانون من أين لك هذا، وإصدار تشريع بإلغاء البغاء فى مصر.

كان عم سيد جلال حبيب الكل، كان زهرة يانعة فى بستان الحياة النيابية. كان رئيس السن فى بداية كل دورة. لا يترك مناقشة تمر، سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو تعليمية أو صحية أو إسكانية أو زراعية، إلا وشارك فيها برأى له وجاهته.

وترك سيد جلال وراءه الكثير.. ترك الخير الذى عم أهل حيه بخدماته الصحية والتعليمية التى وقفت شاهداً على عطائه.. بمستشفى سيد جلال وكثير من مدارس باب الشعرية التى ساهم فى إنشائها.. ترك أبناء أفاضل أساتذة فى كل مجال، شربوا من نبعه الصافى وكانوا خير ما قدمهم لمصر ليزداد عطاؤه.

مات شيخ البرلمانيين، العصامى الذى بدأ من الصفر ووصل إلى القمة بتواضعه وبساطته وعدم إنكار أصله.

سيد جلال أسطورة تعيش فى الواقع، وقدوة فى العطاء جديرة بالاحترام، وأداء برلمانى رفيع المستوى، يعبر الاقتصادى العصامى الكبير من خلاله عن التفاعل الإيجابى مع معطيات الواقع ومتغيراته، ويضع نصب عينيه دائماً مصلحة المواطن البسيط.

لم يكن سيد جلال يبحث فى المقعد النيابى عن حصانة أو وجاهة، ولم يتخذ من المجلس التشريعى أداة يستعين بها لتحقيق المكاسب والمصالح الشخصية، ذلك أنه صوت شعبى صادق مخلص لا يملك المخالفون لآرائه وتوجهاته واجتهاداته إلا أن يحترموا عطاءه وتفانيه.

-٢-

فى دورته النيابية الأولى، بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٥٠، تقدم سيد جلال بعديد من مشروعات القوانين التى تنم عن حسه الاجتماعى وانتمائه الشعبى ووعيه السياسى، فهو صاحب مشاريع "من أين لك هذا؟"، وعدم تملك الأجانب للأراضى الزراعية والعقارية، واستغلال النفوذ، ومحاكمة الوزراء، والضريبة التصاعدية على الدخل العام، وخفض الإيجارات الزراعية.

التأمل السريع فى العناوين السابقة، يكشف عن اهتمامات سيد جلال، حيث البحث عن النقاء السياسى، ومحاربة الفساد واستغلال النفوذ، والعدالة الاجتماعية فى إطار متوازن، والاستقلال الاقتصادى. توجهاته تتجاوز حدود الحى الشعبى الذى يمثله، فهو نائب الأمة كلها، لكنه – فى المقابل – كان شعلة فى النشاط الخدمى داخل الحى، بعيداً عن مناقشات المجلس ومداولاته.

كان مستشفى باب الشعرية إنجازاً مهماً لسيد جلال، وبالجهود الذاتية نجح الرجل فى أن يقيم مؤسسة علاجية راقية، تخدم أبناء الحى وتعفيهم من مشقة الانتقال إلى الأحياء البعيدة. ما زال المستشفى قائماً يحمل اسمه، ويجسد بشكل عملى مفهوم الوظيفة الاجتماعية لكبار رجال الأعمال.

وفضلاً عن المستشفى الشهير، فقد تدخل سيد جلال عندما ازدحمت الفصول الدراسية فى باب الشعرية بطلابها، وهو ما دفع وزارة المعارف إلى إغلاق أبواب مدارسها فى وجوه التلاميذ، ولم تعد مدرسة خليل أغا الثانوية تتسع للمزيد. لم يهرع النائب الشعبى إلى الوزير يطالبه بالاستثناء، ولم يقدم استجواباً أو طلب إحاطة ليصول ويجول، لكنه سارع إلى التبرع ببناء خمسة فصول إضافية على نفقته الشخصية، وخلال أيام قلائل استوعبت الفصول الجديدة أبناء الحى، وكان ذلك كله بلا ضجيج.

فـى العـام ١٩٤٧، اجتـاح وباء الكولـيرا مصر، وسيطر الفـزع والهلع، وتطلـع الجميع إلى المصـل الواقـى. قام سيد جلال بدوره كاملاً، وبذل جهداً خارقاً حتى حصل على الكمية المطلوبة من الأمصـال، وأشرف بنفسه على عملية التطعيم، حتـى اطمأن إلى أن كل فرد من أبناء الحى الشعبى العريق قد أصبح آمناً على نفسه وأسرته من الوباء الخطير.

وامتـدت خدمات سيد جـلال فى باب الشعريـة لتشمل تعمير المساجد الخربـة، فقد أنفق مـن ماله الكثـير على إصلاحها، وكان يجد سعادة غامرة كلما جدد مسجـداً لتفتح أبوابه من جديد لاستقبال أفواج المصلين.

عنـد اشتعال حرب فلسطين، تبرع الاقتصادى العصامـى الكبير بخمسمائة جنيه، وتنازل عـن المكافـأة البرلمانية لصالح الجيش المصرى. قد يبدو المبلغ تافهـاً متواضعاً بمقاييس اليوم، لكنه يمثل ثروة هائلة بأسعار الأربعينيات.

الأنشطـة السابقـة كانـت مما قام به سيـد جلال فى دورتـه النيابيـة الأولى، وقرب نهاية السبعينيـات كان مرشحـاً فـى الحى نفسـه،١٩٧٩، أما عن الأفـكار التى تراوده وهـو على مشارف الثمانـين من عمره، فهى تعبير عن استمـرار الحس الشعبى والتمسك بالمنظومـة الأخلاقية المثالية التـى لم يتنـازل عنها يومـاً. فى حملتـه الانتخابية، ركز الاقتصـادى السياسـى ذو الانتماء الشعبى الأصيـل علـى تقديم مجموعة مـن القوانين الجديدة التـى تناسب إيقاع العصـر ومتغيراته، ومنها: "الإعـدام لمن يختلس أرض الغير وأرض الدولة، تعديل قوانين الإذاعـة والتليفزيون بعد أن أفسدت الحياة الاجتماعية".

لم يكـن سيد جـلال، منذ منتصـف الأربعينيات إلى قـرب منتصف الثمانينيـات، عاجزاً عـن الإنفاق على حملاته الانتخابية، فى مواجهة منافسين قادريـن بدورهم على الإنفاق ببذخ، لكن الرجل لم ينجح يوماً بالدعاية المصنوعة، ومن مقولاته الشهيرة: "المرشح الصادق مع نفسه لا يهتم بالدعاية، ويعتمد على الاتصال الشخصى بأهالى دائرته".

-٣-

مع كثرة القوانين التشريعية التى تقترن باسم النائب سيد جلال، فإن الإنجاز الأشهر والأهم يتمثل فى حملته العنيفة ضد البغاء العلنى، وهو ما أسفر عن إلغاء البغاء سنة ١٩٤٧.

لم يكن موقفه هذا تعبيراً عن انتمائه إلى حى باب الشعرية حيث تقع منطقة البغاء الرسمى المصرح به، لكنه كان مدفوعاً بمشاعر دينية وأخلاقية جياشة، ترى فى البغاء رذيلة ووصمة عار، تسئ إلى عموم الوطن وليس إلى منطقة بعينها من مناطقه.

صدر قرار الإلغاء بعد صراع طويل، فقد اشتعلت معركة عنيفة بين المؤيدين والمعارضين، ولابد من الإشارة إلى أن هؤلاء المعارضين ليسوا من مخاصمى القيم الدينية والأخلاقية، بل إنهم ينظرون إلى ذلك النشاط من منظور اجتماعى واقعى، ولا يكتمون تخوفهم مما يترتب عليه من آثار ونتائج.

للدعارة تاريخ ممتد فى الحياة المصرية، ولابد – منذ البدء- أن نميز بين ضرورتين متداخلتين متكاملتين: ضرورة إدانة التجارة الرخيصة المبتذلة والتنبيه إلى مخاطرها، وضرورة دراستها واستيعاب أبعادها المختلفة.

يمكننا أن نلتمس الكثير من هذه الملامح والأبعاد من خلال التوقف أمام رؤية كاتب كبير فى حجم يحيى حقى، وهو ذو حس دينى وأخلاقى رفيع، وتمثل كتاباته ورؤاه شهادة بالغة الأهمية عن القضية الخطيرة التى تقترن باسم سيد جلال.

-٤-

القضية متشعبة، وتستمد أهميتها من الارتباط الوثيق بثلاثة عناصر ذات شأن: العنصر الأول هو الجنس الذى يمثل نشاطاً لا غنى عنه لاستمرار الحياة الإنسانية، والعنصر الثانى يتمثل فى المجتمع البشرى الذى لا يخلو عبر كافة الأزمان والعصور من خلل فى تلبية الاحتياجات الضرورية لأبنائه، أما العنصر الأخير فقوامه الإنسان، الذى يمتهن المهنة أو يضطر إلى التعامل مع ممتهنها.

فــى كتابات يحيى حقــى، ما يتيح متابعة التطور التاريخى للدعــارة فى مصر، فمن ترجمة الكاتــب الكبيــر، فى كتابة "صفحات مــن تاريخ مصر" لمقال "جاستون فييــت" ، نعرف الكثير عن الدعــارة فــى مصر المملوكية، وفى عمــوم العالم الإسلامى خــلال المرحلة التاريخيــة نفسها: "كان البغاء مباحاً فى كل الدول الإسلامية، تشرف عليه الشرطة، وتترأسه زعيمة لابد لها من دفع ضريبة خاصة" !.

ولا تختلــف العلاقة التاريخية بين الدعارة من ناحية والمجتمع وسلطته السياسية من ناحية أخــرى، عن العلاقة الواقعيــة التى يعاصرها يحيى حقى فى المجتمعات الإسلامية نفسها. وإذا كانت صفحــات التاريــخ تسعف يحيى حقــى فى معرفة طبيعة الدعــارة فى مصــر المملوكيــة، فإن ذكريات الطفولــة العالقــة فى ذهنه تقدم صورة واضحة المعالم عن الدعــارة فى مصر خلال سنوات الحرب العالميــة الأولى. وبــين الحربــين، استقرت أمور الدعارة فــى مصر، وانتشرت بــؤر وأحياء البغاء فى شتــى الأماكن، ثــم جاءت الحرب العالمية الثانية لتصل الدعــارة إلى ذروة غير مسبوقة من النشاط والازدهار.

الأزمــة الاقتصاديــة الطاحنــة تقود كثير مــن الفتيات البريئــات إلى السقــوط فى مهاوى الفســاد والرذيلة، وبهن لا تنقطع مسيرة الدعــارة، بل إن الإلغاء الرسمى للبغاء لا يحول دون انتشار البغاء السرى. امتداد الظاهرة يعنى أنها تلبى احتياجاً واقعياً متجدداً، ذلك أن الاشمئزاز من المهنة العتيقة الموغلة فى القدم لا ينفى أنها تقوم بدور حيوى لا يمكن إنكاره أو التغاضى عن أهميته.

يناقش يحيى حقــى دوافع الدعــارة وأسبابها فى مجموعة من مقالاتــه المنشورة فى كتاب "من باب العشم" ، ويؤمن الكاتــب الكبير بأن هذه الدوافع والأسباب تتغير وتتبدل بقدر ما يطرأ على المجتمع من تغيير وتبدل، كما أنه يؤمن بوجود مجموعة من العوامل المتداخلة التى تدفع الفتيات إلى احتراف الدعارة، ويرفض الإعلاء من شأن سبب واحد كدافع وحيد.

لا يذهــب يحيى حقى إلى وجود دافع واحــد للظاهرة، فثمة مجموعة من العوامل والعناصر المتكاملة: الفقر، المرض النفسى، التنشئة غير السوية، العلل الجسدية، الوراثة. قد يميل حقى إلى أن الفقر هو السبب المهم الأعظم نفوذاً ، لكنه يعى أن الفقر نفسه مفهوم نسبى مراوغ، يتغير تعريفه من مرحلة إلى أخرى، ومن مكان إلى مكان، فقد استطاع العصر الحديث أن يفرض قيمه الاستهلاكية،

التـي تجعل من الكماليات ضرورة ملحة لا غنى عنها، ومن الرفاهية مطلباً حيوياً، بحيث يمثل غياب الكماليات ومظاهر الترف نوعاً من الفقر والحرمان.

إدانـة يحيى حقى الحاسمة للدعـارة، لا تحول دون اعترافه بوظيفتهـا الاجتماعية المهمة. النشـاط مرذول كرية منفر، يثير الاشمئزاز والتقزز، لكنه يقدم خدمة موضوعية للمجتمع وأفراده، ويتصدى – جزئياً – لعلاج عجز المجتمعات عن تحقيق الإشباع الجنسى لأبنائها، وعجز المجتمعات نفسهـا عـن المقاومـة الناجعة للاحتياجـات المادية التى تدفـع إلى الحرمان والسقـوط. وقد تنقلب السلطـة السياسية والاجتماعية على التجارة الشائنة، وتسن من القوانين ما يجرمها ويحرمها، لكن هـذه السلطة نفسها لا تملك أن تضع نهاية لهـا، فالإلغاء القانونى للبغاء العلنى لا يعنى إلا استمراره عبر أشكال سرية منظمة.

-٥-

الاستعراضـ السابق لرؤية الكاتب الكبير يحيـى حقى لا يعنى الدفاع عن البغاء أو المطالبة باستمـراره، لكن الهـدف هو التأكيد علـى أن القضايا الاجتماعية المعقدة لا يمكـن أن تكون أحادية الجانـب، وأن الحماسـ الذى دفع سيد جـلال إلى المطالبة بالغاء البغاء كان نابعـاً من رؤيته المثالية الدينيـة الأخلاقية، ففغل عن حقيقة أن للقضيـة جوانبها الأخرى التى لابد من الوعى بها والتصدى لها حتى يكون العلاج جذرياً.

لقد أرضى سيد جلال ضميره بقيادة الحملة ضد البغاء العلنى، لكن الأمر تحول عنده إلى هاجس ينعكس بالسلب أحياناً على أدائه البرلمانى، فبعد عشر سنوات من صدور القانون الذى طالب بـه، أى بعـد خمس سنوات من ثورة يوليـو، يعود الاقتصادى الكبير إلى مناقشـة القضية من منظور مختلف.

فـى جلسة السابع والعشرين من أغسطس سنة ١٩٥٧، بـادر سيد جلال فى إحدى جلسات مجلسـ الأمة بطلب الكلمة لطرح مسألة خطـيرة، ولم تكن هذه المسألة إلا ما ترامى إليه من أن أحد النواب قد صرح للصحف بأنه يفكر فى وضع مشروع لإعادة البغاء.

ليست المشكلة فى إصرار سيد جلال على ألا يعود البغاء، لكنها تكمن فى إلحاحه على أنه لا يحق للنائب أن يتكلم عن مشروع قانون حتى يقبله المجلس!.

لقد اندفع به الحماس أكثر مما يجب، وصولاً إلى مصادرة حق الآخرين فى التفكير المختلف، ولذلك يتدخل النائب توفيق خشبة قائلاً: "إن نائب باب الشعرية يثير موضوعاً ليس فى جدول الأعمال، ولم يُطرح على المجلس أصلاً"، ويؤكد خشبة أن كل عضو حر فى أن يتقدم للمجلس بأى اقتراح وللمجلس أن يرفض أو يوافق.

هذا المبدأ الديمقراطى يرفضه سيد جلال، فيصيح محتجاً على كلام زميله: "يعنى من حق أى نائب أن يتقدم باقتراح إباحة السرقة" !.

منطق هش لا يصمد للمناقشة بطبيعة الحال، فإباحة السرقة هى الفوضى بعينها، أما الدعارة فإنها تمارس بشكل سرى، قد يجتهد بعض النواب فى تصور أن تنظيماً علنياً لمثل هذا النشاط قد يكون أقل ضرراً، والقرار للمجلس فى النهاية.

لقد كان سيد جلال أخلاقياً مثالياً، يتحلى بشعور دينى عميق، لكن الجانب الاجتماعى فى هذا التدين يتجلى بوضوح فى موقفه من المرأة، وهو ما دفع بعض مناوئيه فى الصحف إلى اتهامه بأنه عدو المرأة.

هل كان سيد جلال عدواً للمرأة ؟!

الفصل الخامس
عدو المرأة

-١-

هــل كان سيد جلال عـدواً للمرأة؟!. الكثير مــن الحملات الصحفية التــى شنها خصومه والمختلفــون معه تشـير إلى ذلك، وتأخذ عليه مواقفه المتحفظة تجاه حريـة المرأة وحقها المشروع فى احتلال المكانة التى تليق بها على خريطة الحياة المصرية.

لا يمكن القول بأن هذه الحملات متجنية ظالمة متحاملة تصل إلى حكم الإدانة بغير أساس، لكـن الإحاطة الشاملة الواعية بحياة الاقتصــادى العصامى الكبير، تنبئ عن حقيقة أن الرجل ليس من المتحمسين لقضايا المرأة، وغياب هذا الحماس لا يعنى بالضرورة أنه عدو لها، فالتوصيف لا يخلو من التطرف، ويستدعــى المراجعة والتصحيح ومراعاة الظروف الموضوعية التى اختلطت مع النشأة الذاتية.

لقــد عاش سيد جلال، منذ صباه إلى اليوم الأخير فى حياته، مخلصاً لمجموعة من المبادئ والقيــم التى تعـبر عن مزيج مــن الإيمان الدينــى المعتدل المتسامــح، والتشبث بالمعايـير الأخلاقية الاجتماعيــة الموروثــة. وفى هذا الإطار، فإنه يحــترم المرأة ويقدر دورها فى السيــاق العائلى المحدد المحــدود. إنــه لا ينكر أهميتها فى بنــاء الأسرة الصالحة وتحقيق الاستقــرار والتوازن، لكن الأمر لا يتجاوز ذلك إلى الموافقة على مشاركة فاعلة فعالة فى تشكيل إيقاع الحياة السياسية والثقافية.

لقد أشرنا فى فصل سابق إلى اعتزاز سيد جلال بالقيم المثالية، واعتراضه على "الأغانى المبتذلــة التــى تقتل الروح الوطنية"، وتــروج للعواطف الرخيصة والحب المبتــذل، ومطالبته بسيادة الأغانى التى تدعو إلى الكفاح والعمل الصالح!. مثل هذا التصور، الذى يخاصم جوهر الفن والإبداع، هو نفسه الذى يهيمن على نظرته إلى المرأة، والمشترك الأساسى بين الموقفين هو الميل إلى استخدام مصطلحــات وتعبيرات نسبية مراوغة، تقود بالضــرورة إلى آفاق ونتائج أقرب إلى الجمود والتعنت. يتجســد ذلك بوضوح فى معارضة الاقتصادى الكبير لمشاركة المرأة فى الحياة النيابية، وفى حملاته الأخلاقية ضد الملابس غير المحتشمة للنساء المصريات!.

-٢-

لم تكن المرأة المصرية، حتى اشتعال ثورة ١٩١٩، ذات أثر وتأثير يُذكر فى المجتمع المصرى، لكن النهضة المترتبة على الثورة الشعبية دفعت بالمرأة لاكتساب المزيد من الحقوق السياسية والاجتماعية، وفى مطلع الأربعينيات من القرن العشرين تشكل أول حزب نسائى مصرى: "نساء مصر"، بزعامة فاطمة راشد.

نص قانون مباشرة الحقوق السياسية، رقم ٧٣ لسنة ١٩٥٦، على منح المرأة المصرية حق الانتخاب والترشيح، واستطاعت المرأة المصرية أن تدخل البرلمان للمرة الأولى فى العام ١٩٥٧، وكانت راوية عطية وأمينة شكرى هما الرائدتان فى هذا المجال، بعد أن خاضتا منافسة شرسة فى دوائر عامة مع الرجال، وتمكنتا من الانتصار.

فى عام ١٩٦٤، وصلت نسبة مشاركة المرأة فى مجلس الأمة إلى ٢,٥٪ من إجمالى عدد الأعضاء، ومُثلت النساء المصريات بثمانى عضوات. ومنذ ذلك التاريخ وإلى الآن، قد يختلف العدد وتتغير النسبة، لكن الراسخ المستقر هو أن المرأة لا تغيب بالانتخاب أوالتعيين.

لم يكن اقتحام المرأة المصرية للساحة النيابية بالأمر اليسير، فقد انقسم المجتمع بين مؤيد ومعارض، وداخل كل فريق تتباين أسباب التأييد والمعارضة. وفى هذا السياق وحده، يمكن أن نتوقف أمام رؤية سيد جلال، المثيرة للجدل، حول مشاركة المرأة فى الحياة السياسية بشكل عام، وفى الحياة البرلمانية على وجه الخصوص.

-٣-

فى مارس سنة ١٩٦٤، وبعد نهاية الجولة الأولى من انتخابات مجلس الأمة، التى فاز فيها سيد جلال ممثلاً لحى باب الشعرية، وقبل أيام قليلة من جولة الإعادة فى الدوائر التى لم تُحسم نتائجها، صرح النائب المخضرم فى حديث تليفزيونى أن المرأة لا تصلح لعضوية مجلس الأمة، وأكد أنه لا جدوى من انشغالها بالعمل العام، لأن مكانها الطبيعى هو البقاء فى المنزل!.

لم يكن هذا الرأى العنيف الصادم مما يمكن السكوت عليه، ليس لأنه يمثل تهديداً خطيراً للمرشحات اللاتى يخضن جولة الإعادة، بل لأن المناخ العام فى تلك المرحلة التاريخية كان يتحمس

لكل ما هو عصرى، ويعلى من شأن مشاركة المرأة فى كل المجالات: وزيرة، ونائبة برلمانية، وإعلامية فى الصحافة والإذاعة والتليفزيون، وأستاذة جامعية ومحامية ومهندسة وطبيبة.

كانت السيدة مفيدة عبد الرحمن، وهى من هى فى تاريخ المحاماة، الأكثر اعتدالاً وهدوءاً فى الرد على سيد جلال، فقد أشارت إلى أنه عضو نيابى متميز محترم، يقدم خدمات جليلة لأبناء دائرته، ودافعت عن حقه فى إبداء ما يعن له من الآراء دون حجر أو مصادرة، بل إنها تعلن أنها لا ترفض أفكاره فى مجملها: "وإذا كان سيد جلال يرى أن المرأة مكانها البيت فهذا رأى يجب أن نحترمه.. وأنا شخصياً أرى أن رسالة المرأة الأولى هى البيت، فإذا استطاعت أن تؤدى واجبها فى البيت حق لها بعد ذلك أن تتطلع لأن تؤدى واجبها فى المجالات الأخرى .. أى أن تؤدى واجبها فى عملها، ثم فى الاتحاد الاشتراكى، ثم فى مجلس المحافظة، ثم فى مجلس الأمة، وفى الجمعيات الخيرية والخدمة الاجتماعية".

مفيدة عبد الرحمن امرأة عاملة رائدة، وشخصية ذات نشاط سياسى واجتماعى وثقافى متنوع، فضلاً عن عضويتها فى مجلس الأمة، لكنها توافق النائب سيد جلال على أن كل عمل تقوم به المرأة لا ينبغى أن يكون على حساب وظيفتها فى بناء الأسرة المستقرة الناجحة، ولعل الخلاف الجوهرى بينهما أنها ترى المرأة قادرة على الجمع بين النشاطين الخاص والعام، أما سيد جلال فيذهب إلى النقيض من ذلك.

- ٤ -

تختلف النبرة تماماً فى الرد الذى تتصدى به النائبة الشهيرة نوال عامر، فهى تبدو حادة فى قولها: "إن مساواة الرجل بالمرأة مقررة فى القرآن الكريم، بل إن القرآن فيه سورة النساء وليس فيه سورة الرجال"!.

مثل هذا الاندفاع الحماسى لا يبدو عقلانياً أو مقنعاً، فالمساواة بين الرجل والمرأة لا علاقة لها بوجود سورة قرآنية تحمل اسم "النساء" وغياب سورة تحمل اسم الرجال!. منطق متهافت، وتوقف شكلى لا يخدم قضية المرأة، بل إنه يسئ إليها بالاستخفاف والخلط.

وتمضى الأستاذة نوال عامر فى حملتها لتؤكد أن ما يقوله سيد جلال مخالف للميثاق الوطنى الذى ساوى بين المرأة والرجل فى الحقوق والواجبات!، ومثل هذه الإشارة إلى "الميثاق" تتضمن إحراجاً سياسياً لنائب باب الشعرية، فهو "متهم" بمخالفة الوثيقة الفكرية الأهم لثورة يوليو، أو هو – على الأقل – متهم بأنه لم يقرأ الميثاق جيداً!.

الاتكاء على القرآن الكريم والمعطيات الدينية قد يكون مبرراً ومفهوماً، مع التحفظ على منهج الاستخدام، لكن الحديث عن الميثاق الوطنى يبدو مقحماً لا هدف له إلا الإحراج، أما الحجة التالية التى تسوقها نوال عامر فأقرب إلى الكوميديا منها إلى المناقشة العلمية الجادة: "فالسيدة عائشة وقفت مع النبى محمد صلى الله عليه وسلم وهى امرأة، فى حين أن أبا جهل وقف ضده.. وأبو جهل رجل!".

أى منطق هذا الذى يختزل النساء فى شخصية أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنها، ويختصر رجال العالم فى شخصية أبى جهل؟!. إنها بذلك تمثل تعصباً مرذولاً ينتصر للنساء على حساب الرجال، متناسية أن الهدف الذى تدعو إليه هو المساواة بين الجنسين، وليس الانتصار لأحدهما على الآخر!.

وبالمنهج نفسه، لا تجد نوال عامر حرجاً فى تذكير سيد جلال ببطولة الجزائرية جميلة بوحريد، التى صمدت فى وجه التعذيب ولم تعترف على أى من زملائها، بينما انهار بعض الرجال واعترفوا!. إنها تعود مرة أخرى لتعلى من شأن المرأة على حساب الرجل، فكأنها الوجه الآخر الذى لا يختلف موضوعياً عن الفكرة التى يدعو إليها سيد جلال، "المتهم" بأنه ينحاز للرجل ويتحامل على المرأة.

قد تكون آراء سيد جلال مفارقة لروح العصر، وجديرة بالتحفظ والاختلاف، لكن المنهج الذى تلجأ إليه نوال عامر يبدو مسرفاً فى عاطفيته وعصبيته، فكأنها تتشاجر ولا تناقش!. واللافت للنظر أنها ترى المجتمع المصرى قادراً على التمييز بين الآراء المختلفة، وتؤكد أن ما قاله النائب فى حديثه التليفزيونى لا يمكن أن يؤثر على الناخبين: "فالوعى الآن كبير ولا يمكن التأثير فيه بمثل هذه الآراء".

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تلجأ إلى العصبية والاندفاع فى الهجوم البعيد عن الموضوعية والاتزان؟!.

-٥-

بين اعتدال مفيدة عبد الرحمن، وعصبية نوال عامر، تقدم السيدة كريمة العروسى رؤية ثالثة متوازنة متماسكة، حيث تركز على الدفاع عن قضية المرأة بشكل عملى موضوعى لا تحامل فيه أو إسراف.

لا تتعرض النائبة كريمة العروسى لسيد جلال على المستوى الشخصى، ولا تلجأ إلى سلاح السخرية والتهكم، كما أنها لا تصنع تناقضاً وهمياً بين الرجل والمرأة، ذلك أن كل تركيزها ينصب على عملية الحراك الاجتماعى الذى ترتبت عليه متغيرات هائلة دفعت بالمجتمع المصرى إلى الأمام، بحيث لا يبدو مستساغاً أن يشير النائب ذو التوجه المحافظ إلى ما لم يعد جديراً بالاهتمام: "إن البلد تقدمت، والعقليات المتخلفة لم يعد لها أى تأثير.. وهذا الرأى ناتج من رواسب فى نفس الرجل الذى تملك المرأة مدة طويلة ووضعها فى الأغلال".

الأمر هنا لا يتعلق بسيد جلال شخصياً، لكنه يتجاوز الذاتى إلى الموضوعى، ويرصد بقايا المؤثرات التقليدية الموروثة. ومن ناحية أخرى، تتوقف كريمة العروسى أمام الدين ورؤيته لقضايا المرأة: "إن الشريعة الإسلامية نفسها تؤيد انطلاقة المرأة فى ٤ حالات .. أن تكون هناك عقلية فذة تفوق عقلية الرجل .. وفى هذه الحالة يكون لهذه المرأة أن تقدم الخدمة العامة على خدمة الأسرة وأن تعمل المرأة فيما يتفق مع طبيعتها كأن تعمل مدرسة أو طبيبة .. أو أن تكون مضطرة للعمل للإنفاق على أسرتها وأطفالها".

إجماع على الاختلاف مع سيد جلال، لكن النائب الأخلاقى لم يتأثر بالحملات التى توالت ضده، واستمر على موقفه حتى اليوم الأخير من حياته، ففى انتخابات سنة ١٩٧٩، وفى حوار مع جريدة "الأخبار"، أعلن سيد جلال عن رفضه القاطع لفكرة المقاعد المخصصة للمرأة: "٣٠ مقعداً كثيرة جداً يجب تخفيضها. المرأة مكانها البيت، لأن العمل السياسى يحتاج إلى تحكم فى العواطف، والقضايا المصيرية تحتاج إلى عقلية الرجال ومواقفهم الجادة"!.

-٦-

قبل هذه المعركة بسبع سنوات، وتحديداً فى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٧، شهدت الصحافة المصرية جدالاً مماثلاً بشأن ما تردد عن نية النائب سيد جلال فى التقدم بمشروع قانون لمجلس الأمة، يحرم على المرأة أن تلبس الفساتين الضيقة والمثيرة والعارية!.

توالت الانتقادات الساخرة التى جعلت من سيد جلال هدفاً لها، لكن نائب باب الشعرية لم يلتزم الصمت، وبادر بالرد على منتقديه والساخرين منه، متمسكاً بفكرته، ومؤكداً فى الوقت نفسه أن "عدداً كبيراً من الناس لم يفهموا ما قلته. إننى لا أطالب بمنع الملابس الضيقة .. إنما أنا أطالب بمنع الملابس المثيرة. قد يكون الفستان ضيقاً ولكنه غير مثير، ولكن هناك فساتين ضيقة ومثيرة. وأنا أطالب بمنع الفساتين العارية التى تكشف عن صدر المرأة أو ظهرها. يجب أن نفهم أننا أمة لها تقاليدها الأخلاقية والدينية التى تتنافى مع هذه المظاهر. يجب أن نفهم أن الفستان العارى لا يمثل درجة من الحضارة وصلنا إليها".

صحيح ما يقوله سيد جلال من أن الملابس الضيقة العارية المثيرة ليست دليلاً على الحضارة والتقدم، لكن الصحيح أيضاً أن كلمات مثل "ضيقة" و "عارية" و "مثيرة"، تبدو فضفاضة بعيدة عن التحديد والوضوح، أما الدفاع الذى يقدمه سيد جلال عن فكرته فيزيد الأمر غموضاً وإبهاماً. رداً على سؤال من أحد الصحفيين: "كيف تستطيع أن تحدد الفرق بين الفستان المثير وغير المثير؟. هل نترك هذا الحكم لعسكرى البوليس أو لرجل الشارع؟"، يرد الاقتصادى الكبير: "لقد وضعت فى عقلى أساس المشروع، ولكننى لم أفكر فى تفاصيله عندما يصبح موضع التنفيذ"!.

رد بعيد عن الإقناع ويخلو من المنطق، فلا مجال للفصل بين "أساس المشروع" وتفاصيله، ولاشك أن ما يبدو مثيراً عارياً عند أحد المواطنين أو رجال الشرطة، قد لا يكون مثيراً وعارياً عند آخرين.

هل يمكن أن يتحقق الالتزام الأخلاقى بقوة القانون؟. لقد شارك الصحفى الكبير على أمين فى المعركة، وهو صديق مقرب من سيد جلال، وكتب ساخراً عن مشروع القانون الذى يفكر فيه النائب: "أفلت كريستيان ديور أمس من بين يدى سيد جلال!. لقد حضر نائب باب الشعرية إلى جلسة مجلس الأمة يحمل حافظة كبيرة تضيق بما فيها من أوراق وملفات وكأنها ثوب من الأثواب

الضيقــة التى يشكو منها النائب المحترم!. وضع نظارته على عينيه وراح يحاول ويناور لإدخال الورق داخل المحفظة، كما يحاور ويناور لإدخال الأجساد العارية داخل الفساتين! ولكن لا الحافظة اتسعت للورق، ولا الفساتين اتسعت للأجسام!".

داخـل المجلس، تصدى السيـد زكريا محيى الدين لمناقشة سيد جـلال، وأكد فى كلمته أن السلـوك الأخلاقى لا يمكن أن يتحدد عبر قوانين ملزمة" وإنمـا اجتماعيا وأدبياً وثقافياً ودينياً عن طريـق الوعظ والإرشـاد والصحف، وذلك قبل أن نلجـأ إلى إصدار التشريعـات". وأضاف زكريا: "يجب ألا ننسى مسئولية الرجال قبل النساء فى هذا الموضوع".

كان سيد جلال مدفوعاً بالقيم الدينية والأخلاقية التى يؤمن بها فى إخلاص وصدق، لكنه لم ينجـح فى تحويـل رؤيته هذه إلى صياغة محكمة واضحة، ويتجلى ذلـك فى قوله إنه لم يكن يفكر فى إثارة المسألة فى مجلس الأمة: "ولكنه وهو فى طريقة إلى المجلس قابل امرأة ترتدى فستاناً يكاد يتمزق من على جسدها، وصدرها شبه عار، فأثار هذا المنظر شعوراً بالنفور عنده، وأسرع يطلب فى مجلس الأمة منع الفساتين الضيقة حفظاً للشباب".

هل يمكن أن تصاغ القوانين على هذا النحو؟!.

سؤال تبدو إجابته فى غير صالح سيد جلال!.

الخاتمة

-١-

تجسد حياة الاقتصادى والبرلمانى المصرى الكبير سيد جلال، الرائد فى مجالات الاستيراد والتصديـر والصناعة واستصلاح الأراضـى، أنموذجاً متكاملاً غير مسبـوق للنجاح الذى يبدأ من القـاع، ويصل بصاحبه إلى القمة، اعتماداً على الجهـد والعرق والإرادة الفولاذية والإصرار الذى لا يعرف اليأس.

نشـأة فقيرة فـى صعيد مصر، ويُتم مبكر يدفع الطفل إلى الهجرة الداخلية نحو العاصمة، وتنقل بين عدد من الأعمال الشريفة المتواضعة، وتثقيف ذاتى ينمى موهبة العمل الاقتصادى الطموح، وصولاً إلى الإنتاج المثمر الذى يخلو من شبهات الفساد وشوائب الانحراف، ويتكئ على القيم الدينية والمعايير الأخلاقية، معلياً من شأن الكرامة والاعتزاز بالنفس.

سيد جلال "ابن بلد" أصيل، لم يرث ثروة أو نفوذاً عائلياً، لكنه صنع اسماً محترماً قوامه العمـل الجاد والكفاح العنيد والإصـرار الدءوب على تجاوز كل ما يواجهه من تحديات وصعوبات. لم يملكـه المال يوماً أو يسيطر عليه، فقد أعلى الرجل دائمـاً من قيمة العمل الخدمى العام، الذى يقفز فوق أسوار الأنانية الذاتية إلى آفاق رحيبة يجد فيها السعادة عندما يسعد الآخرين.

ما أكـثر الذين يحيلون فشلهم وإخفاقهم ومحدودية نجاحهـم إلى الظروف المعاكسة التى تعرقـل الطمـوح والصعـود، لكن تجربة العصامى المحـترم سيد جلال هى البرهـان العملى على أن الإنسـان الراغـب فى النجاح قادر على تحقيـق أهدافه ما دام مسلحاً بـالإرادة والوعى. لا يأس من تبديـد جحافـل الظلام، شريطة ألا يعتمد ذلك الأمل على الانتظـار السلبى العقيم، ومراودة احلام اليقظة، فلا بد من المبادرة ولا بديل عن السعى.

لم يتعلـم سيـد جـلال، ولم يحصل على شهادة، لكنـه اكتسب ثقافة رفيعـة، ولقن الأجيال دروساً بليغة جديرة بالتأمل.

-٢-

إذا كان الأغلب الأعم من رواد الاستثمار فى مصر، قبل ثورة ١٩٥٢، ممن تسلحوا بالثقافة الغربية وتشبعوا بالقيم العصرية، ونالوا شهادات جامعية فى تخصصات هندسية واقتصادية وقانونية وتجارية، فإن العصامى الشعبى سيد جلال يبدو مختلفاً عنهم ومغايراً لهم. لم يلتحق بمدرسة أو جامعة، ولم يكن انفتاحه على الغرب وثقافته إلا من قاعدة التشبث بالتقاليد الشعبية والمنظومة الأخلاقية الموروثة.

كان سيد جلال متديناً بلا تعصب، أخلاقياً بلا تزمت، مثالياً بلا قطيعة مع معطيات الواقع. يرى فى العمل قيمة مقدسة، ولا يتساهل أو يتهاون مع من يبدون الضعف أو يظهرون الهوان. فى محطات حياته جميعاً كان سيد جلال عظيم الاعتزاز دائم الفخر بنشأته الفقيرة وأصوله الاجتماعية المتواضعة، ذلك أنه لا يجد فى تاريخه هذا إلا صفحات من الفخار لا ينبغى إنكارها أو التبرؤ منها.

رجل جاد مقبل على الحياة، مولع بالدقة والنظام والانضباط. كل نجاح يحققه الآخرون بمثابة نجاح له، ولم يتأخر يوماً فى دعم من يستحقون التشجيع.

يعى أن لرجال الأعمال والاقتصاد دورهم الاجتماعى ووظيفتهم فى تحقيق التوازن والانسجام، ويترجم وعيه النظرى إلى سلوك عملى، ففى الدورات البرلمانية العديدة التى كان فيها نائباً عن حيه الشعبى العريق، باب الشعرية، كان سيد جلال شعلة من النشاط الخدمى الذى لا يتوقف، فى كافة المجالات: الصحة، التعليم، دور العبادة، تمهيد الطرق، توفير فرص العمل.

وتحت قبة البرلمان، توالت مشروعات القوانين التى تقدم بها النائب الوطنى الشعبى، مستهدفاً مصلحة عموم الوطن، والذين يكررون الإشارة إلى القانون الشهير الذى تحول إلى شعار: "من أين لك هذا؟"، قد يجهلون أن سيد جلال هو صاحب الشعار والفكرة، كما أنه المسئول عن مشروعات أخرى لقوانين وتشريعات تراود حماية البسطاء والدفاع عن مصالحهم وحقوقهم، وتنشد

المزيـد مـن الشفافية والنقاء فى الحياتـين السياسية والاقتصادية، ولا سبيـل إلى ذلك إلا بمحاربة الفساد والانحراف.

-٣-

ممـا يؤخـذ على سيد جـلال، فى إطـار الاحـترام الكامل لمكانتـه والتقدير غـير المحدود لإنجازاتـه، أنـه محافظ فى مواقفه من بعض قضايا التطور الاجتماعى، ومن ذلك أنه لا يرى للمرأة دوراً خارج نطاق الأسرة، ولا يحبذ مشاركتها الإيجابية الفعالة فى الحياة السياسية والبرلمانية، فهى حياة ينبغى عنده أن تقتصر على الرجال وحدهم!.

للرائد الكبير مطلق الحرية فى أن يردد من الآراء ما يحلو له، وأن يتبنى الأفكار التى يعتقد أنها الأصلح والأكثر جدوى. ومن ناحية أخرى، فإن لمخالفيه ومعارضيه حقهم المماثل فى طرح بدائل مناقضـة والانحيـاز إلى رؤى مختلفة. ولكى يتحقق قدر من التوازن فى تقييم اجتهادات سيد جلال، لابد من الإشارة إلى عاملين مهمين.

يتمثل العامل الأول فى نشأة الاقتصادى العصامى الكبير، وتشبعه المبكر بالتقاليد والعادات الموروثـة، وقـد تعانق هذا المـيراث الشعبى مع تدين سيد جـلال ليشكل منظومـة فكرية لا تميل إلى الإسراف فى الأخذ بالأساليب والقيم العصرية المغايرة لما كان سائداً.

أمـا العامل الثانـى فيتجسد فى حقيقة أن بعض معارضى توجهاته كانوا بدورهم أقرب إلى التطرف والمبالغة فى حملاتهم ضده. إذا كان الرجل متهماً بالعداء للمرأة، فإن منطق خصومه كان يقـود أحيانـاً إلى عداء الرجل!، ويتحـول الأمر بذلك إلى معركة غير مجدية بـين الجنسين، لابد أن ينتصر فيها طرف ويُنفى الآخر!.

-٤-

لقد اجتهد سيد جلال فى إخلاص نادر لخدمة وطنه ومجتمعه، والتحفظ على بعض أفكاره لا ينفى أن تجربته الثرية مليئة بالعلامات المضيئة.

أول هذه العلامات ترسيخ قيم الكفاح والدأب والإصرار، والعلامة الثانية نجدها فى تجربة التثقيف الذاتى التى قدم فيها درساً لا يمكن إهماله أو نسيانه، أما العلامة الثالثة فهى عطاؤه الاجتماعى الذى يجمع بين النظرى والعملى، فهو يكتب ويخطب، ثم هو- أيضاً - يترجم شعاراته إلى ممارسات يومية، نجد ثمارها فى المستشفى الذى يحمل اسمه، والمدارس التى دعمها وأنفق عليها، والمساجد التى عمرها وجددها، والخدمات التى قدمها لكل ناخبيه وأبناء حيه العريق.

عاش سيد جلال متوافقاً، ورحل عن الدنيا مخلفاً ذكرى عطرة جديرة بالإشادة والاحترام والتقدير.

ملحق الصور



وجه مصرى

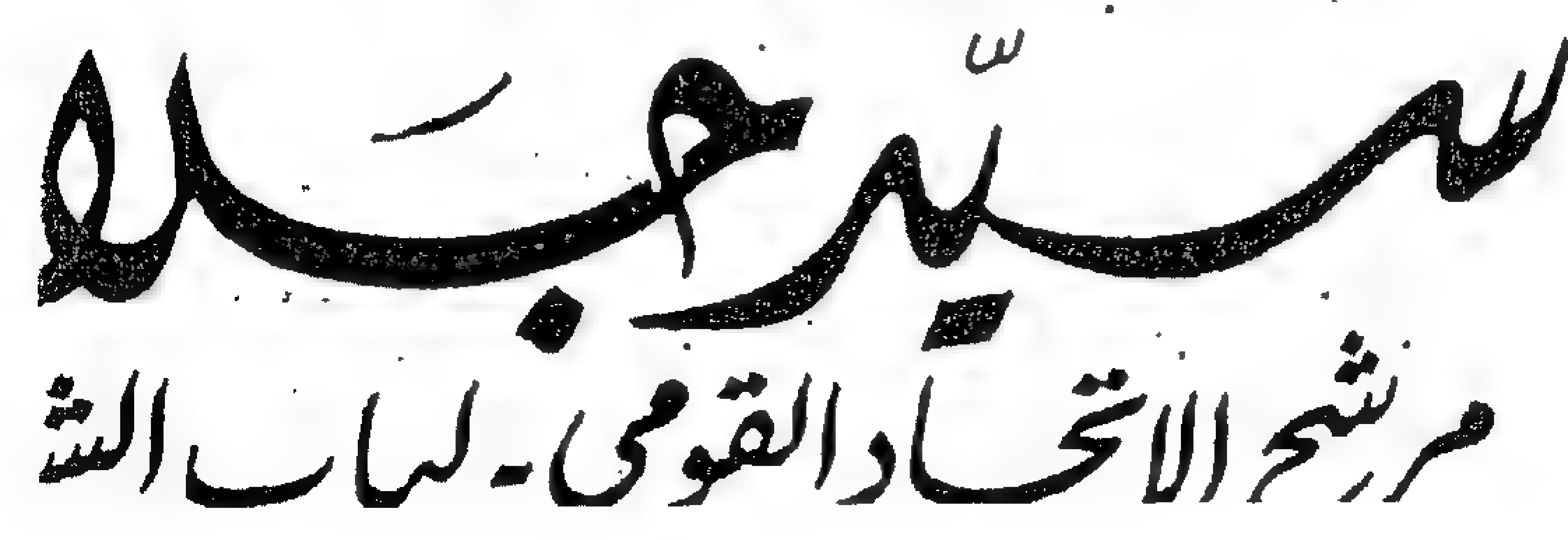


واجهة مستشفى باب الشعرية الذى أنشأه سيد جلال ..

خدمة الدائرة

بسم الله الرحمن الرحيم

عليه نتوكل - وبقدرته نستعين

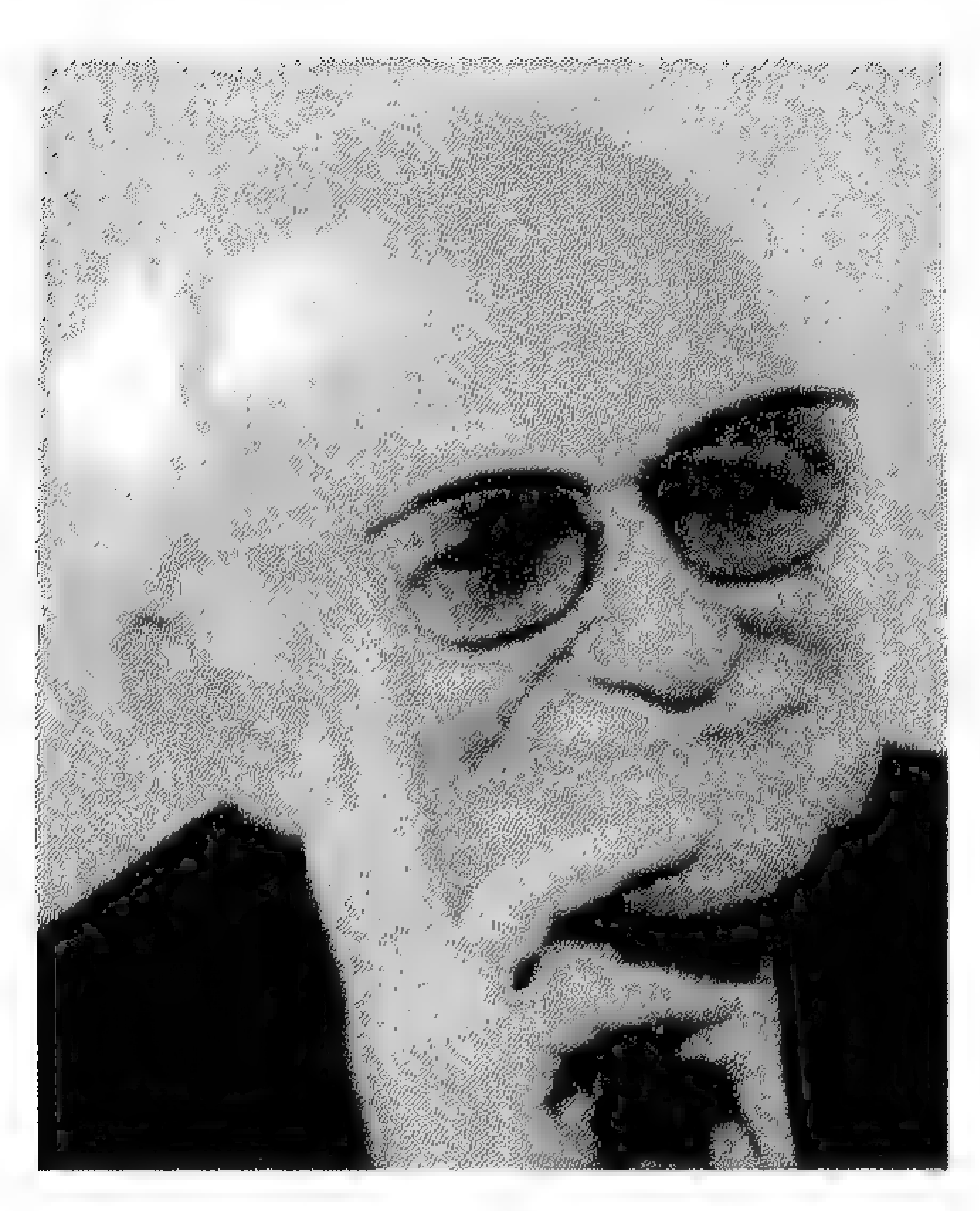


معارك انتخابية



كريمة العمروسى نوال عامر مفيدة عبد الرحمن

معارك مع المرأة



يحيى حقى

شهادة عن الدعارة



عثمان أحمد عثمان .. رثاء وتقدير



خطاب مفتوح إلى الرئيس محمد نجيب



من سيد جلال

لا شك أن مصر لم تلق في تاريخها الحديث وجها مخلصا [illegible] أولاه لهم [illegible] ... و[illegible] الشيء ووددت أن أهمس [illegible] .. إياك أن تعيد البرلمان قبل أن تضمن أنه لن يكون فيه شيء من البرلمان السابق ... ذلك البرلمان الذي لم يكن غير مجموعة [illegible] من ذوي الأغراض والمطامع والأهواء [illegible] ذات يوم نائبا في ذلك المجلس [illegible] الأمرين ورأيت بعيني كيف تهدر حقوق الشعب تحت أقدام نواب الشعب وبأيدي ممثلي الشعب .. ! رأيت بعيني كيف تنحر الكرامة .. وينتحر الشرف .. !

إياك أن تعطي مفاتيح الذهب الذي [illegible]

الذهب وبدأ عهد الحديد ... الحديد الذي ستقوم عليه المصانع .. والمدافع .. ! انتهى العهد الذي كان فيه بريق الذهب وحده هو الذي يخطف بصر الحاكم .. وبدأ العهد الذي فيه صدأ الحديد هو الذي يثير تساؤل الحاكم ..

إياك أن تدلل الشعب .. فالشعب وأنا أعرفه جيدا، لابد أن نعمل لكل [illegible] من ينظر إلينا الآن ونحن نستورد ما نستكمل به [illegible] أننا شعب روحي

[illegible] لا بعد زراعي يشقه النيل ... وآه من [illegible] ذلك النهر الذي دلل هذا الشعب حتى أفسده التدليل .. لو أننا كنا في صحراء قاحلة لعملنا ليلا ونهارا لنعيش كما يعيش الآخرون . فلننشئ مكاتب [illegible]

[illegible] .. و [illegible] لأن [illegible] كان جميع أوراق [illegible] من الشوارع ..

إياك أن [illegible] المعهد [illegible] في القاهرة [illegible] القاهرة إلى الأرياف [illegible] سيصحب معه إلى الأقاليم [illegible] الحضارة و[illegible] والرقي .

إياك أن تصدق أن حالتنا التجارية أو الاقتصادية [illegible] .. إن الذين يقولون هذا [illegible] الحرب [illegible] الحرب .. ولكن تذكر كل تاجر .. كان [illegible] الحرب لا [illegible] في وضع طبيعي يستحق القلق ..

وبعد هذا [illegible] في هذه [illegible] القليلة أن [illegible] قد أوضحت [illegible] ما يدور في [illegible]

اقتصاد وسياسة



كيف تصبح مليونيرا..؟!

بقلم احمد عبود باشا

كيف أنفق مليون جنيه ؟!

سيد جلال

المصلح الاجتماعى



حضور صحفى

الإصدارات السابقة :

١. محمد أحمد فرغلى ... ملك القطن

٢. أحمد عبود ... الاقتصادى العصامى

٣. فاطمة اليوسف ... الريادة والإرادة

٤. عبد اللطيف أبو رجيلة ... امبراطور الأتوبيس

الفهرس

ملاحظـــــات :

ملاحظـــــات :

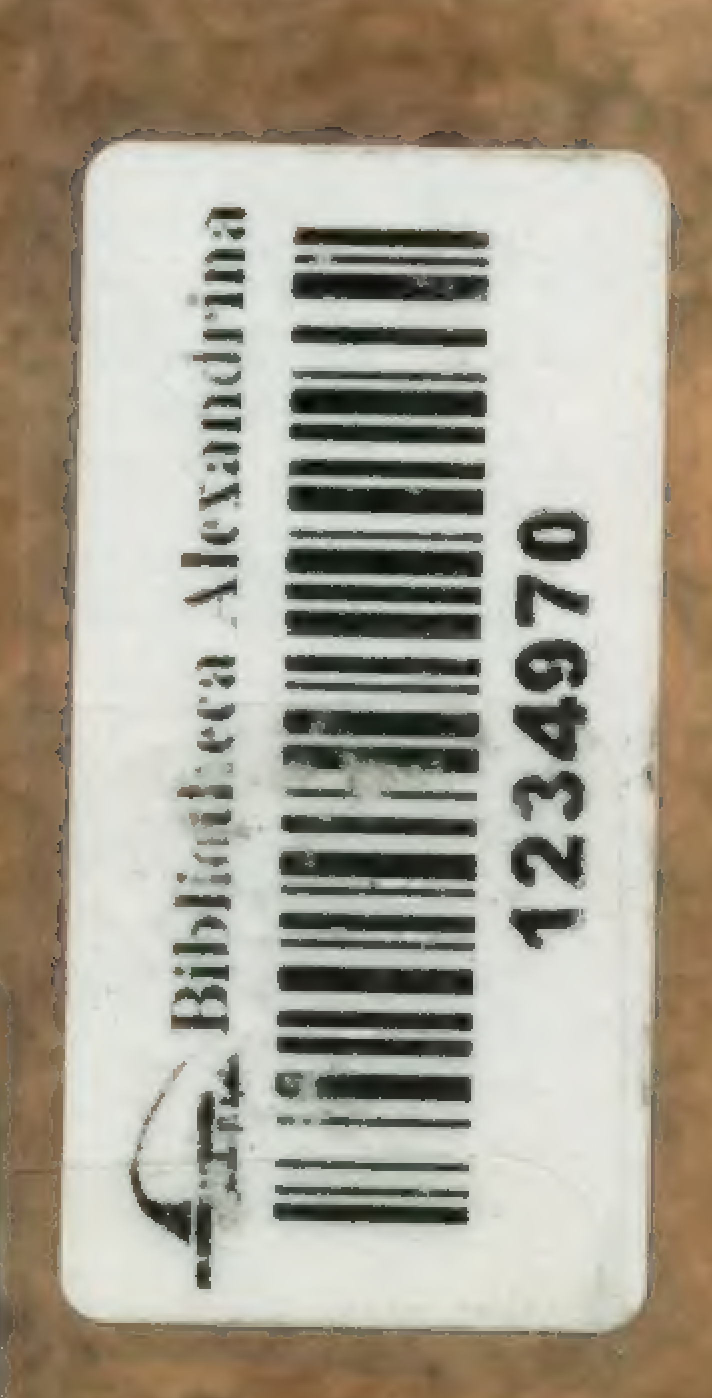
ملاحظـــــات :

ملاحظـــــات :

بين ثورتى ١٩١٩ و ١٩٥٢، شهد الاقتصاد المصرى بداية النهضة، مقترنة بالجهود الخلاقة التى بذلها طلعت حرب من خلال مشروعاته العملاقة، فضلاً عن عدد من الرموز والأعلام الذين أسهموا فى اقتحام مجالات الصناعة والتشييد والتجارة، وامتد نشاطهم إلى كافة مناحى الحركة الاقتصادية.

مجموعة الكتيبات هذه لا تعتمد على التحليل الاقتصادى وحده، بل إنها تطمح إلى تقديم ما يشبه "البورتريه" المكثف، وتسعى إلى إذابة الجليد الذى طُمرت سجلاتهم تحته، وتهيئة القارئ الذى يجهل هؤلاء الرواد لتقبل فكرة إعادة النظر فى جملة الثوابت التى شاعت عنهم بلا دليل، وهيمنت دون تعقل، وأسفرت عن أحكام ظالمة تجافى المنطق.

التاريخ الاقتصادى المصرى حلقات متصلة، ولا معنى للبحث عن مستقبل أفضل بمعزل عن إدراك معطيات الماضى ومتطلبات الحاضر، فالمسألة ليست صراعاً بين المراحل المتتالية، قدر ما هى تكاملية تعبر عن الامتداد، وتستثمر التجارب للنهوض وتجنب التعثر والارتباك.





مركز إعداد القادة لإدارة الأعمال

وزارة الاستثمار

تقاطع شارع سالم سالم وشارع عبد العظيم راشد - العجوزة - الجيزة - ج.م.ع

تليفون : ٣٣٣٧٧٧٣١ - ٣٧٦٠٠٤٠٤   فاكس : ٣٧٤٩٤١٢٥ - ٣٧٦٠٩٣٤٢

الموقع الإلكترونى : www.Lmdc.gov.eg